طبعةٌ جديدةٌ مُصحّحةٌ ومُنقّحةٌ ومُخرّجةُ الأحاديث

الصَّلاةُ عِمادُ الدِّينِ

الدكتور حسن الترابي

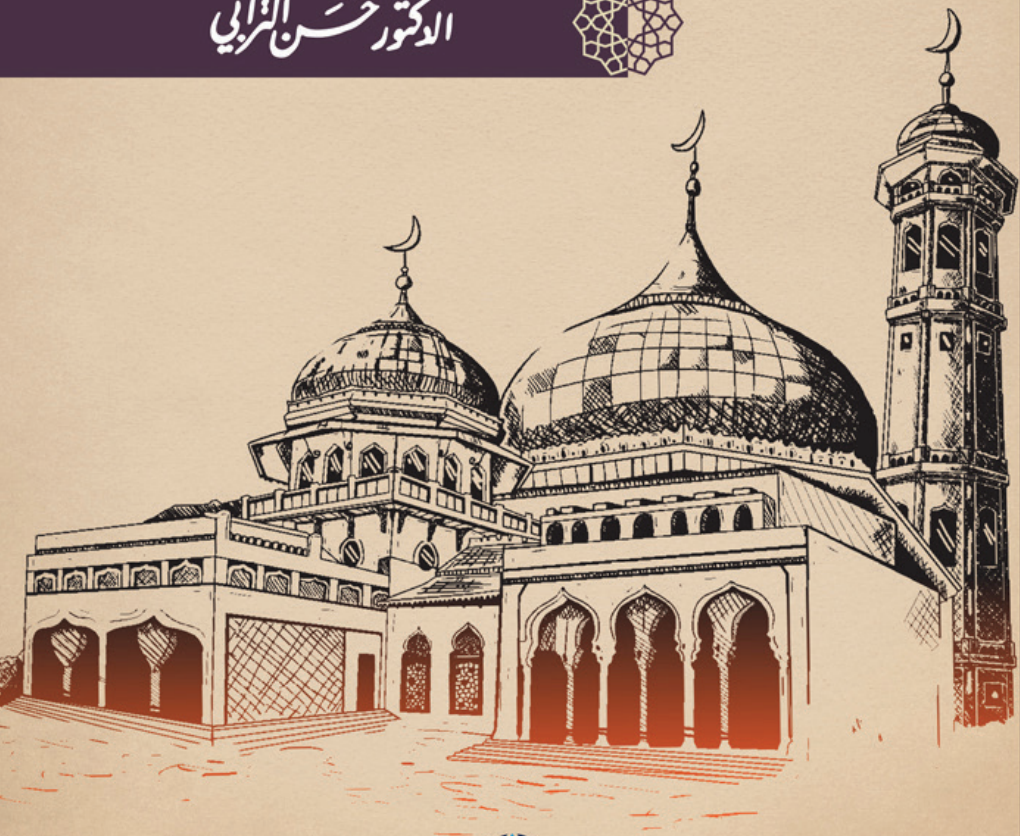

دار الأصالة

طَبعةٌ جَديدةٌ
مُصحّحةٌ ومُنقّحةٌ
ومُخرَجةُ الأحاديث

الصلاة عماد الدين

تأليف
الدكتور حسن الترابي

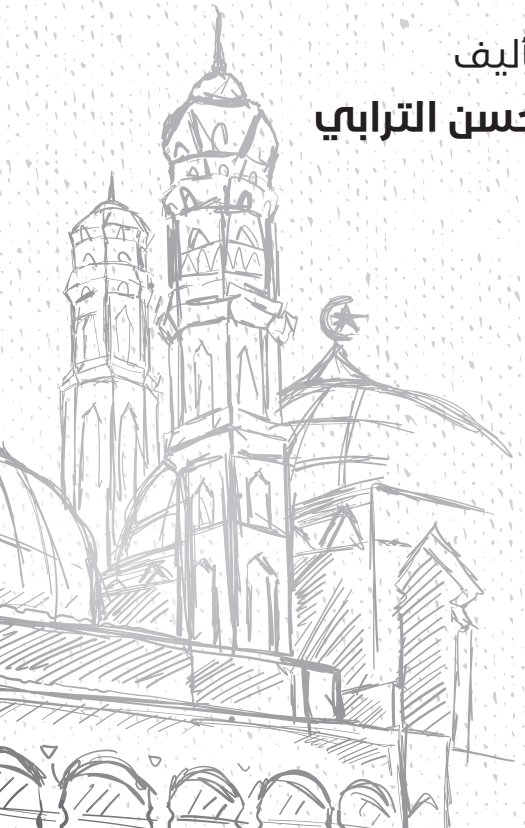

دار الأصالة

دار الأصالة

رقم الإصدار الترقيم الدولي
153
978-625-8336-16-0

اسم الكتاب
الصلاة عماد الدين

اسم المؤلف
الدكتور حسن الترابي

رئيس التحرير
رجب صونگول

الطبعة
الأولى – أغسطس 2022م / محرم 1444هـ

دار النشر
Asalet Eğitim Danışmanlık
Yayın Hizmetleri İç ve Dış Ticaret
Sertifika No: 40687
Balabanağa Mh. Büyük Reşit Paşa Cd.
Yümni İş Merkezi, No: 16B/16 Vezneciler
Fatih, İSTANBUL-TÜRKİYE
Tel: +90 212 511 85 47
www.asaletyayinlari.com.tr
asalet@asaletyayinlari.com.tr

Step Ajans Matbaa Ltd. Şti.
Sertifika No: 45522
Göztepe Mh. Bosna Cd. No: 11
Bağcılar/İSTANBUL

Copyright © 2022
دار الأصالة للنشر والتوزيع وخدمات الترجمة والطباعة – إسطنبول – © تركيا 2022
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة.

تصميم الغلاف والإخراج الفني
artsanajans

الصلاة عماد الدين

تأليف

الدكتور حسن الترابي

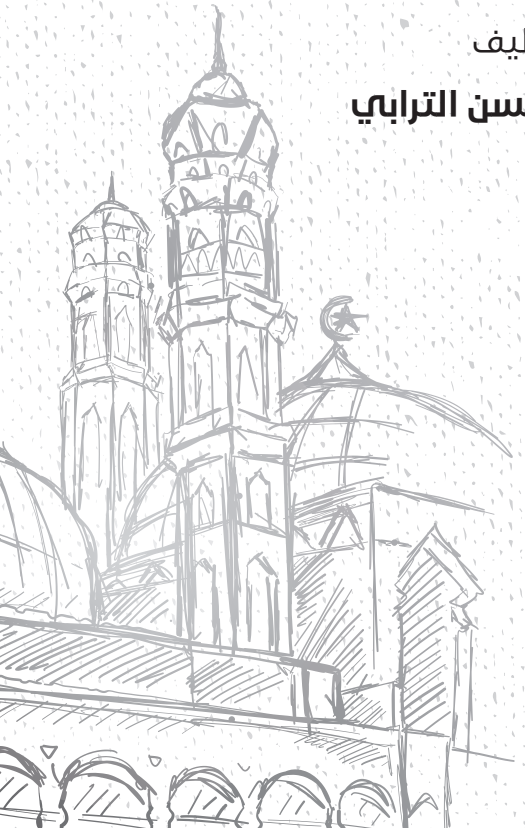

دار الأصالة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

الحمد لله والصلاة والسلام على أشرف خلق الله محمدٍ النبيّ الأميّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين وبعد:

فإن دار الأصالة للطباعة والنشر تُقدم للقارئ المسلم كتاب «**الصلاة عماد الدين**»، لأحد رجال الدعوة والفكر الإسلامي الدكتور **حسن الترابي** رَحِمَهُٱللَّهُ، بنسخته الجديدة والمنُقّحة؛ راجين من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ القبول الحسن، وتلبية لحاجة الأمة الإسلامية لهذا الكتاب المُفيد.

فالصلاة لدي جيلنا المعاصر دخل فيها نوع من التهاون، أدى إلى الحرمان من آثار هذه العبادة على الفرد والمجتمع والأمة؛ لأن الصلاة روح الحياة الفردية والجماعية.

لذلك حرصت «دار الأصالة»؛ على إعادة طباعة هذا الكتاب بعد مراجعته، وتدقيقه، وتخريج أحاديثه، وضبط مراجعه من قِبَلِ أهل الاختصاص.

ونحن إذ نضع هذا الكتاب بين أيدي قرّائنا الكرام، باذلين الجهدَ فيه، داعين الله عَزَّوَجَلَّ أن يوفِّقَنا فيما نَصْبُو إليه، شاكرين فضلَه علينا؛ آملين منه عز وجل أن يتقبل ممن ساهم في إخراج هذا الكتاب بالشكل الذي يليق بموضوعه.

كما تُقدم دار الأصالة الشكر والتقدير للشيخ الداعية الدكتور **علي محمد الصلابي** -حفظه الله- لإرشاده وتوجيهه؛ لطباعة هذا الكتاب العظيم.

ونأمل أن نكون قد قدَّمنا الخيرَ للقراء الكرام، ونطمع منهم بالدعاء المخلص لنا في ظهر الغيب؛ لتقديم المزيد من العطاء، والله وليُّ التوفيق.

رئيس التحرير
رجب صونگول
١٢ أغسطس ٢٠٢٢م
١٤ محرم ١٤٤٤هـ
إسطنبول - تركيا

المقدِّمة

هذا كتابٌ في معاني الصلاة وآثارها في حياة المسلِم، من حيث إنَّها أمُّ العبادات وإنَّها تربيةٌ كاملةٌ للمسلِم تُورِثُه نَفْساً مُشربةً بمعاني الإيمان جميعاً وحياةً طيِّبةً عامرةً بالعبادة وصالح الأعمال.

وهو بيانٌ للحِكَم البالغة والمقاصد الجليلة التي جُعِلت من شعيرة الصلاة عماداً لكلِّ شُعَبِ الإيمان، وقاعدةً لكلِّ صنوف الطاعات، حتى كادت أن تكون جماعاً لأركان الدين، تمثِّل كلًّا منها بوجهٍ ما وتحتويها جملةً في صورةٍ مصغَّرة، وحتى استحقَّت أن تكون أوجبَ واجبات الإسلام العمليَّة.

والكتابُ من خلال ذلك يلقي ضياءً على تكامل تعاليم الإسلام ووحدةِ المعنى التي تربط عُراه، بما يكشف عن الاتساق والتلازم بين الصلاة وبين سائر العبادات، بل بينها وبين تكاليف الدين في شتى نواحي الحياة.

ولا ريبَ أنَّ الصلاة طاعةٌ يدَّخرها صاحبُها للدار الآخرة، وعبادةٌ يبتغي بها وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ويرجو مفازاً وأجراً كريماً في حياة الخلود؛ ولكن هذا البحث إنما يعالج بيانَ آثارها في عاجل أمر المصلِّي، وكيف تنبسط تلك النتائج وتتشعَّب في

جوانب حياة المسلم فتزيدُه خيراً ورشاداً، وتُبارِكُ في المنتهى حسنَ عاقبته يوم الدين، ولئن كانت الصلاةُ شعيرةَ تعبُّدٍ محضٍ واجبةَ الأداءِ مهما قَصُرَ إدراك المصلِّي لأبعاد حكمتها، أو كانت آثارها وبركاتها ربما تحصل له من حيث لا يستشعر، فإنَّ تمام الفقه بوظائفها يزيدُه اطمئناناً إلى تعظيم أمرها، وإنَّ الفقهَ بمقاصدها يضاعف ثمارها في نفسه وحياته.

وقد اشتهرت مباحثُ التعليل واستنباطِ الحكمة في أبواب المعاملات من الفقه الإسلاميِّ نسبةً لقلَّة النصوص واختلاف الظروف والمصالح، ممَّا يدعو إلى تفهم المقاصد الكليَّة للأصول الشرعيَّة والبناء عليها بالقياس والاجتهاد، بينما غلب على فقه الصلاة سردُ الأحكام وتفصيلُ الفروع؛ ولكن الحاجة لتجديد أمرِ المسلمين في شأن الصلاة تدعو لتعميق العلمِ بمعانيها وحِكَمِها ليهتمَّ لها المسلمون ويحسِّنوا أداءها ويحقِّقوا الأغراضَ الجليلةَ المنوطةَ بها.

وفضلاً عن ذلك فإنَّ توثُّق أسبابِ الاتصال بين العالَم قد ضاعف فرصَ الدعوة الإسلامية، واستوجب علينا عرضَ أحكام الإسلام ومبادئه بمعايير التفاهم العقليّ التي تُقَرِّبُها لغير المؤمنين. وقد أدَّى اتساعُ العلم بالطبيعة وتجلِّي الوحدةِ والاتساق في نواميسها إلى شيوع النظر المنهجيِّ الفاحص،

والدراسة الشمولية لشؤون الحياة، ممَّا يتيح للمسلمين - إذا ما أبرزوا نظامَ الإسلام بنهجه المتكامل وحكمته البالغة - هدايةَ المفكِّرين الضالين الذين زهَّدَهم في الدين طقوسٌ غيرُ مفهومةٍ وتقريرات غير معقولة، وشتاتُ تعاليم غير منظومة.

وإذا وردت أحكامُ الصلاة في هذا الكتاب فلا تَرِدُ بالتبويب المعهود، ولن يقصد منها استقصاء الفروع أو إثبات الأصول الشرعية، فتلك مسائلُ أَوفَتْها بالدراسة كتبُ فقه المذاهب وفقهِ الأصول، فما من مسألةٍ عنى بها فقهاءُ الأحكام كالصلاة، أحصنوا أعمالَها وفصَّلوا تكاليفها من الفرض والندب إلى الكراهة والتحريم ووضَّحوا أوضاعها من شروطٍ وأسبابٍ وما يكتنفها من رخصٍ وعزائم، وما يعتريها من وجوهِ الصحةِ والفساد، وحقَّقوا حجِّيَّة كلِّ حكمٍ فيها بالرجوع إلى الأدلة الشرعية.

ويشتمل الكتابُ على طائفةٍ من أذكار الصلاة ممَّا يزيدنا فقهـًا بمعانيها وأغراضها، ولكنّه لا يحصي كلَّ مأثورِ الذكر في هذا المجال، فقد جُرِّدَتْ لأقوال الصلاةِ دراساتٌ واسعةٌ في كتب الحديث والأذكار.

وليس من شأن الكتاب كذلك أن يستفيضَ في شرح الأحوال النفسيَّة التي تنشأ في الصلاة أو من أثرها، فتلك أمورٌ رهينةٌ

بأسرار التركيب الشعوريِّ لكلِّ فردٍ متديِّن، والصلاةُ بهذا الوجه تجربةٌ شخصيةٌ يذوق فيها المصلي من اللطائف الخاصَّةِ ما لا يحيط به التعبيرُ ولا يحدُّه إلا حظُّه من الإيمان.

بل إنَّه لا مطمعَ في أن تحيطَ هذه الورقات بكلِّ المعاني والآثار العامَّة للصلاة - وهو صميمُ الموضوع الذي تتناوله - لأنَّ حكمة الصلاة علمٌ لا يتناهى لفكر بَشَر، وإنما نحاول أن نوسِّعَ آفاقَ علمنا ونزدادَ فقهـًا، لا سيَّما أنَّ عامةَ المسلمين قد قنعوا من الصلاة بمراعاة أحكام الأداءِ الشكليِّ حتى فرَّطوا في كثيرٍ من فوائدها المرجوَّة، وحتى اغترَّ بعض غلاةِ الشاطحين فعدُّوها شكلاً ووسيلةً يتجاوزها الواصلون!

ولعلَّ شيئـًا من التأمُّل في صلاة الفرد والجماعة، وفي معانيها من حيث المظهر والمضمون، وفي آثارها في النفس والحياة؛ **يُعينُنا** على فهمها فنقدرُها حقَّ قدرها، ويكشفُ مدى خسراننا بإضاعتها فنحفظها ونقيمها ونجني ثمارها الطيِّبة.

فهذا الكتاب خطابٌ:

• إلى المصلِّين الساهين عن معنى ما يؤدُّونه إلَّا مراعاةً لمجتمعٍ رقيبٍ، أو وفاءً بتقاليد أسرةٍ صالحةٍ أو مناصِرةً لمظهرِ عصبيَّةٍ دينيّة.

• وإلى الذين تركوا الصلاةَ وما زال في نفوسهم جذوةٌ من إيمانٍ وقبسٍ من دينٍ، لم يمرقوا من ملَّة الإسلام، ولكنَّهم جهلوا حكمةَ تلك العبادة فلم يبالوا بها وهي أوجب الواجبات.

• وإلى أبناء المسلمين الذين هجروا دينَ آبائهم، حجبهم عن نوره الجهلُ الموروث، وفَتَنَهم الفكرُ اللادينيُّ الجامح الخارج على الدَّيدَنات المظلمة.

• وإلى الغرباء عن الإسلام الذين ينشدون علماً بحقائقه.

والله -سبحانه- ولي التوفيق.

حسن الترابي

الصَّلاة أولَى الفرائِض العَمليّة في الدِّين

١ - الشعيرة الباقية عبر الرسالات:

الصلاة عبادةٌ تحقِّقُ دوامَ ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والقربى من جنابِه، وتمثِّل تمامَ الطاعة والإسلامَ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والتجرُّدَ له وحده بلا شريك، وتربي النفسَ على معاني التقوى والإنابةِ والصبرِ والتوكل والجهاد، وتهيِّءُ المؤمنَ لحياةٍ صالحةٍ بين جماعة المؤمنين.

فهي عملٌ من صميم التديُّن، ولذلك كانت سنَّةً مطردةً على تعاقب رسالات السماء، تكليفـًا من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يلتزم بها أولئك المصطفون الأخيار الذين حملوا أمانةَ النبوة وعبءَ الرسالة، يُوثِقُون بها أسبابَ الاتصال بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويتهيؤون لتلقِّي الوحي والإلهام، ويتزوَّدون طاقةً روحيَّةً تعينهم على أثقال الرسالة ومجاهداتها، ثم وصيَّةً يوصون بها عشيرتهم الأقربين وبلاغـًا يؤدُّونه إلى قومهم المؤمنين.

فذلك إبراهيمُ أبو الأنبياء عَلَيْهِ السَّلَامُ يدعو ربَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنفسه ولذريته: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ [إبرهيم:٤٠]. ومضى في الساجدين

لتبقى الصلاة في عقبه: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾[الأنبياء ٧٢- ٧٣]. وعَلِمَ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنَّ في إقام الصلاة إعماراً لمراكز الدين والعبادة، وقياماً بشؤون القيادة والإمامة الدينية التي كان يرجوها من بعده لذريته، فهو يدعو اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يليِّن قلوبَ الناس لتنقادَ لأبنائه المصلِّين: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبرهيم:٣٧]. وقام إسماعيلُ من بعد أبيه عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ كذلك بسنَّة الصلاة ووصَّى بها أهلَه: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴾[مريم:٥٤- ٥٥].

وهـذا موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يتلقَّى التكليفَ من ربِّـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تكليمـاً بعبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وإقام الصلاة أمِّ العبادات: ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾[طه: ١٤]. وكانت الصلاةُ فيما أُخِذَ على بني إسرائيل من ميثاق: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا

وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ﴾ [البقرة:٨٣]. وكانت زادَهم من التقوى في ظروف المحنة: ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّـَٔا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[يونس: ٨٧].

واعتصم شعيب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بسنَّة الصلاة فكانت في أهل مدينَ مظهرَ الدعوة الجديدة حتى جعلوها علَّةً لما ينصحهم به رسولهم من نبذِ الشركِ الموروث والإقلاعِ عن الظلم الاقتصادي: ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾[هود: ٨٧].

وكانت الصلاة في موعظة لقمانَ الحكيم لابنه: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾[لقمان: ١٧].

وجارة المحراب مريمُ ابنة عمران عَلَيۡهَا ٱلسَّلَامُ جاءتها الملائكة بأن تقنتَ وتصلِّيَ للذي طهَّرها واصطفاها على نساء العالمين: ﴿ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٣].

ثم أتى عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ يُعلِنُ في مستهلِّ منطقه المُعجِزِ أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى اختصَّه بالكتاب والنبوة والبركات وأوصاه طولَ الحياة: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾[مريم: ٣٠-٣١].

فما انفكَّت الصلاةُ في عداد الشعائر والتعاليمِ الخالدة التي لازمَتْ هذا التراثَ الدينيَّ الذي هو الإسلام، والذي تتابع الوحيُ وتوالت الرسلُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ تجدِّدُه وتحيي سُنَنَه، بل كانت أبرزَ المعالم في توجيهات الإسلام العملية، وأوكدَ الوصايا التي خوطبَ بها الرسلُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بعد التوحيد، وكذلك كان شأنُها في الإسلام كما بَعَثَتْه وأتمَّتْه خاتمةُ الرسالات.

٢- فريضة الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- الأولى في الإسلام:

لعلَّ الصلاةَ كانت في كلِّ الرسالات أُولى الفرائضِ العمليَّة التي جاءت لتصديق عقيدة الايمان وتنفيذِ معنى العبادة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فقد كان أوَّلُ خطاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الكليم مشتملاً - بعد تعريف ربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى به وإعلامه بأنَّه اختير للتلقِّي والتبليغِ - على الأمر بعبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وإقام الصلاة

لذكره: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَۖ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ [طه: ١١-١٤].

ولما بعث محمَّدٌ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ رسولاً من الله -تعالى- ومصدقًا لما بين يديه، وشاهداً على وحدة دين الإسلام؛ شُرِعَتْ له الصلاةُ في مثل المرحلة التي شرعت فيها لموسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ:

فقد بدأ الوحي بمَطَالع السورِ الأولى فنزل عليه جبريلُ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لأول العهد في حِراء بمستهلِّ سورة العلق[1] ولقَّنه قرآنًا باسم الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَصِفُ له من صفات ربِّه سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الحسنى: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾[2]. ثم فَتَرَ عنه الوحيُ فلمَّا عاده الملكُ -أي جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ- مرَّةً أخرى فَزِعَ منه إلى أهله وادَّثَّر فنزلَ عليه مَطلَعُ المدَّثِّر[3]، وفيه

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، حديث رقم ٣ . وأخرجه مسلم، كتاب الإيمان باب بدء الوحي إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، حديث رقم ١٦٠.

(٢) العلق.

(٣) رواه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي =

التكليفُ بأن يقومَ في الناس منذراً مكبِّراً ربَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والأمر بأن يطهِّرَ ثوبَه توطئةً لإقام الصلاة التي نزلت بها الآياتُ الفواتحُ من سورة المزمِّل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾[المدثر: ١-٤].

وكانت الصلاةُ - مع القرآن وذكرِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والتوكُّل عليه - عدَّةَ الرسولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأولى لتحمُّل أثقالِ الوحي والنبوَّة وللصَّبر على حملة التكذيب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡئٗا وَأَقۡوَمُ قِيلٗا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ۝٧ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ۝٨ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ۝٩ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾[المزمل: ١-١٠].

ولما اكتملت سورتا العلق والمدثر وَرَدَ في لاحِقِ آياتهما ذكرُ الصلاة، إذ إنَّها كانت أسبقَ مظاهر الدين الجديد، فأصبحت الهدفَ الأوَّل لكيد المكذِّبين: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ۝٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾[العلق: ٩-١٠] وإنَّها أولُ عملٍ كَفَرَ به أولئك المكذِّبُون

= إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حديث رقم ٤، وأخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حديث رقم ١٦١

وأوَّل ما يندمون على تضييعه يوم القيامة: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾[المدثر: ٤٢-٤٣].

ثم إنَّ القرآنَ الذي اتخذ فرضاً لازماً في الصلاة هو الآياتُ السبعُ المثاني التي تتألَّف منها رابعةُ سور القرآن نزولاً وفاتحةُ كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ترتيباً.

وكانت الصلاة أوَّلَ حكمٍ يطرأ عليه التخفيفُ بعد التكليف؛ لأنَّها كانت أُولى الفرائض العملية، وقد نزلت به خواتيمُ المزمِّل التي جاءت بعد نحو عام من نزول فواتحها[1] لتنسخَ فرضَ قيام الليل الذي كان الجِدُّ فيه لازماً لظروف الدعوة الأولى، ولترفعَ الحرجَ وتجعلَ القيامَ نفلاً يناسب حاضر المسلمين إذ تكاثروا، وأعجزت بعضهم ظروفُ الصحَّة وكسبِ العيش، ويوافق ما كانوا يستقبلون من ظروف القتال في سبيل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وتؤكد السيرةُ ما تشهد به أولياتُ القرآن، فقد روي أنَّ جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قام بتعليم النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كيفيَّة الوضوءِ والصلاة في أوَّل عهد البعثة، وعلَّمَها الرسولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زوجَه خديجةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وسائر الصفوة التي سبقت إلى الإيمان، وكان هو

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى السماوات وفرض الصلوات، حديث رقم ٢٥٩.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يذهبون في شعاب مكّة يستخفون بصلاتهم تقيةً من أذى قومهم، ثم جهرَ بها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأقامَها في الملأ بالمسجد الحرام، وهناك هدَّدَه أبو جهل ونهاه، فنزلَ فيه القرآن المتقدِّمُ ذِكرُه من سورة العلق[1].

ولما أراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يحكمَ فرضَ الصلوات بكتابها الموقوت لم ينزِل بها ملكًا إلى الأرض وإنما أنعمَ على رسوله الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمعراجٍ إلى السماء[2]، وهنالك مثل بين يدي ربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتلقَّى من لدنه هذا التكليف الجليل.

وحقُّ الصلاة أن تعظَّم هذا التعظيم من دون سائر الشعائر والتعاليم، وأن تؤخذ عن قربٍ من جوارِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنّها مطيَّةُ القربى منه والوقوف بين يديه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ ولأنَّها معراجٌ متاحٌ لكلِّ مسلمٍ إلى ربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يفزع إليه ليؤويه بالأمن

---

(١) ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين ت (٢١٣هـ)، سيرة ابن هشام، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، شركة الطباعة الفنية المتحدة، ج١، ص ٢٢٧.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب حديث الإسراء، حديث ٣٨٨٦-٣٨٨٧، من حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وأخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب ذكر المسيح بن مريم والمسيح الدجال، حديث رقم ١٧٠.

والسكينة كما آوى عبدَه ورسولَه ﷺ بالمعراج في فترة حرجٍ بالغٍ اشتدَّ به ﷺ فيها صدودُ الكفار وأذاهم، وأوحشه ﷺ فَقْدُ المؤنسِ والنصير بعد هجرة أصحابه رضي الله عنهم إلى الحبشة ووفاة زوجه رضي الله عنها وعمِّه عامَ الحزن[1].

وكما كانت الصلاةُ أوّلَ شعيرةٍ تفرض في مكة، فقد كانت كذلك أوَّلَ عبادةٍ تكتمل بالمدينة، فقد فرضت ركعتين ركعتين حتى هاجرَ النبيُّ ﷺ فزِيدَ في صلاة الحضر[2]، وفي المدينة أتمَّت بعدها سائرُ شعائر العبادة، ففُرض صيامُ رمضان وكُتِب الحجُّ إلى البيت الحرام، وعُيِّنَت مقاديرُ الزكاة، كما فرضت معظمُ التكاليف العامة في الإسلام.

فالصلاة بعد العقيدة هي أولى واجبات الإسلام خوطِبَ بها النبيُّ ﷺ وقد جاءه الأمر بها في ذات السورة التي روت حديثَ الإسراء: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ

(١) ابن هشام، سيرة ابن هشام، ج٢، ص ٣٢-٣٥.

(٢) أخرجه الإمام النسائي في السنن، كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة؟، حديث رقم ٤٥٥، من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها وذكر الشيخ عبد الفتاح أبوغدة في تحقيقه لسنن النسائي أن هذه الحديث صحيح، انظر السنن، للنسائي، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، ط٢(١٤٠٦هـ-١٩٨٦م) ج، ص ٢٢٥.

ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾ [الإسراء: ٧٨-٧٩] فضلاً عن سوالفِ الأمرِ له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالصلاة: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ [هود: ١١٤]، ﴿ ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، والوصاة له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن يأمرَ بها أهله: ﴿ وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾ [طه: ١٣٢]، وقد ورد بالصلاة كذلك توجيهٌ مخصوصٌ لنساء النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

والصلاة لأمَّة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كذلك هي أوّلُ عملٍ تخاطبهم به دعوةُ الإسلام: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٢].

﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴾ [إبراهيم: ٣١]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ [الحج: ٧٧-٧٨].

وهي أيضًا من بين الأعمال أوَّلُ أسباب البشارة بحسن الجزاء في الآخرة للطائعين، وأوّلُ مسائل الحساب للعاصين:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ﴾ [فاطر: ٢٩]، ﴿ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ﴾ [المدثر: ٤٢-٤٣].

وقررت السُنَّة بعد القرآن نفسَ المكانة العظيمة للصلاة، فهي في دار العمل رأسُ الطاعات، وأفضلُ أعمال الإسلام.

فقد سئل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أيُّ الأعمال أفضل (أو أحب إلى الله)؟ فأجاب: «**الصلاة على وقتها**»[1].

وهي في دار الجزاء فاتحةُ الحساب: «**إنَّ أوَّل ما يحاسب به العبدُ يوم القيامة من عَمَلِه صلاتُه، فإن صلحت فقد أفلح ونجح، وإن فسدت خاب وخسر**»[2]، والضامنُ للفوز والمغفرة: «**خمس صلواتٍ مَن أَحسَنَ وضوءَهُنَّ وصلاتهنَّ لوقتهنَّ وأتمَّ ركوعهنَّ وسجودهنَّ وخشوعهنَّ؛ كان له عهدٌ على الله أن يغفرَ له، ومن لم يفعل فليس له على الله عهدٌ إن شاءَ غفر له وإن شاء عذَّبه**»[3].

---

(١) رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت:٨]، حديث رقم ٥٩٧٠، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه الترمذي في سننه، أبواب الصلاة، باب ما جاء أن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة، حديث رقم ٤١٣، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحكم الشيخ شاكر بصحته من أوجه أخرى، انظر سنن الترمذي، تحقيق أحمد شاكر وآخرون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، ط٢(١٣٩٥هـ- ١٩٧٥م)، ج٢، ص ٢٦٩.

(٣) رواه أبو داوود في سننه، كتاب الصلاة، باب في المحافظة على وقت الصلوات، حديث رقم ٤٢٥، من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحكم عليه بالصحة محمد محيي الدين عبد الحميد ، انظر سنن أبي داوود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، ج١، ص ١١٥.

وإذا كانت الصلاةُ في الإسلام أوَّلَ العمل الصالح وأفضلَه؛ فهي لذلك أبـرزُ المظاهر والسمات للمسلمين العاملين، تميِّزُهم في واقع الحياة عن سائر الناس.

الصَّلاة السِّمة المائِزة لأهل الاسلام

١ - الصفة اللازمة للمؤمنين:

الصلاة - فيما يقرِّر القرآنُ - مصداقُ الإيمانِ وأثرُه الأوَّل، فهي لذلك الصفةُ اللازمة للمؤمنين، ولا يَرِدُ فيهم بيانٌ يصف أحوالهم وأعمالهم إلَّا وللصلاة فيه ذكرٌ، بل الغالب أن يكون لها مكان الصدر.

ولعلَّ أبلغ بيانٍ قرآنيٍّ عن مقام الصلاة من بين صفات أهل الإيمان قد جاء في فواتح سورة «المؤمنون» وآيات من سورة المعارج، فقد ذُكِرت الصلاةُ في أوَّل تلك الصفات وفي آخرها، لأنَّ الصلاةَ تحيط بالأعمال الصالحة كلِّها وتكاد تحتويها جميعًا بوجه ما وتمثلها في صورةٍ مصغرةٍ:

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[المؤمنون: ١ - ١١].

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[المعارج: ١٩ - ٣٥].

ويطَّردُ في القرآن ذكرُ الصلاة ضمن ما يتَّسِمُ به المؤمنون من صالح الأعمال ممَّا يؤهِّلهم للبشرى بأجرٍ كريمٍ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾[الأنفال: ٢ - ٤].

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[التوبة: ٧١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[التوبة: ١١١ - ١١٢].

﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٖ ١ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾[النمل: ١ - ٣].

﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۩ ١٥ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ١٦ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٥ - ١٧].

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٣٦ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ

وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾[الشورى: ٣٦ - ٣٩].

وما يكاد القرآن يمتدحُ أهلَ الإيمان بالنعوت الحميدة ويفصِّلها بتعداد أعمالهم الصالحات إلَّا كانت الصلاةُ من بينها، فهي العمل اللازم للمتقين الأبرار أُولي الألباب، وللمخبتين عباد الرحمن، وللمحسنين الذين يعملون: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[البقرة: ١ - ٣].

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾[البقرة: ١٧٧].

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟

﴿ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾[الرعد: ١٩ - ٢٢].

﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٤ - ٣٥].

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا..﴾[الفرقان: ٦٣ - ٧٥].

﴿الٓمٓ ١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ٢ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾[لقمان: ١ - ٤].

﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[الزمر: ٩].

٢- شرط الاسلام ومناط أحكامه:

إقام الصلاة هو السمة الظاهرةُ التي تشهد بأنَّ المرءَ ينطوي على عقيدة الإيمان، وهي لذلك في حكم الشريعة الشرطُ

والـشـارةُ للدخول والانتماءِ في ملة الإسـلام؛ للمصلِّي ما للمسلمين وعليه ما عليهم.

والإيمان والإسلام كلمتان تتقابلان فتنصرف الأولى إلى استقرار العقيدة في النفس، والثانية إلى الدخول في الطاعة الظاهرة، وقد تطلقان فتدلَّان بالتناوب على التزام الدِّين بما يشمل عليه من عقائد وأعمال.

ومتى ما ذُكِر الدينُ باسم الإيمان وأهلُه باسم المؤمنين فإنَّ الملحوظَ فيه مع الشمولِ تمكُّنُ العقيدة في النفس على أتَمِّ الوجوه، ممَّا يثمر في واقع الحياة إتيانَ الطاعات العمليَّة على أتمِّ الوجوه كذلك، ويؤهل صاحبَه لوعدِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الحقِّ بجنَّة النعيم.

ولما كان تقبُّل الأعمال رهينـًا بالنيات الخالصة فقد رتَّب القرآنُ حسنَ الجزاء على الإيمان، وبنى عليه عملَ الصالحات كما بدا في الآيات الآنفةِ الذكر التي تصف أعمالَ المؤمنين وتـزفُّ إليهم البشريات، وقـد مضى في تلك الآيـات وفي الأحاديثِ بيانُ قدر الصلاةِ بين شُعَبِ الإيمان وموجبات الأجر في الدار الآخرة.

وإذا أشيرَ إلى الدين باسم الإسلام فإنَّ الملحوظ هو إعلانُ المرء تصديقَه بالدين وانصياعه في ظاهر الأمر كلِّه لتكاليف الشرع، وإنما يصدر ذلك عن إيمانٍ داخليٍّ، فإذا خَلَت الطويَّةُ

من أصول الاعتقاد بينما سلكَ المرءُ في ظاهره مسلكَ المؤمنين واندرجَ في زمرة المسلمين؛ فهو منافقٌ محرومٌ من نعيم الآخرة عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليمِ السرائر، ولكنَّه محكومٌ في واقع دنياه بحكم المسلمين، تسري عليه واجباتهم وحقوقهم؛ لأنَّ أوضاع الناس فيما نطبِّق من الشريعة إنما تجري على الظاهر المعلوم.

والصلاةُ للإسلام هي الركنُ الأهمُّ بعد الشهادة بالتوحيد وتصديق الرسالة، وهي الشرط الأوَّلُ للانتماء لأمَّة المسلمين:

«بُني الإسلامُ على خمس: شهادة ألا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحجّ البيت»[1].

«مَن صلَّى صلاتنا واستقبلَ قبلتنا وأكل ذبيحتنا فهو المسلم»[2].

---

(١) رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بني الإسلام على خمس»، حديث رقم ٨، من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وأخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب أركان الإسلام ودعائمه العظام، حديث رقم ١٦.

(٢) أخرجه الإمام النسائي في السنن، كتاب الإيمان وشرائعه، باب صفة المسلم، حديث رقم ٤٩٩٧، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وذكر الشيخ عبد الفتاح أبوغدة في تحقيقه لسنن النسائي أن هذا الحديث صحيح، انظر السنن، للنسائي، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، ط٢(١٤٠٦هـ-١٩٨٦م) ج٨، ص ١٠٥.

وقد سألَ رسولَ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سائلٌ عن آيات الإسلام فقال: «**أن تقول: أسلمتُ وجهي لله وتخلَّيت. وتقيمَ الصلاة، وتؤتي الزكاة. كلُّ مسلمٍ على مسلمٍ محرَّمٌ؛ أخوانِ نَصِيرانِ، لا يُقبَل من مشركٍ بعدما أسلمَ عملٌ أو يُفارِقُ المشركين إلى المسلمين**»[1].

وأوَّل عهد المرءِ بالإسلام - بعد الإقرار بالتوحيد والرسالة- أن يتعلَّمَ الصلاةَ ويأخذ بها، ذلك هو الجواز العمليُّ من الكفر إلى الإسلام.

وكان النبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إذا أسلم الرجلُ أوَّل ما يعلِّمُه الصلاةَ[2]، وإذا قدمت وفودُ العرب المدينة لتدخل الإسلامَ استبقاهم حتى يتعلَّموا الصلاةَ وشيئًا من القرآن، وأخذ عليهم البيعةَ أو كاتبهم بشروط الإسلام، وأهمها الشهادة بالإيمان

(١) أخرجه الإمام النسائي في السنن، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، حديث رقم ٢٤٣٦، من حديث معاوية بن حيدة القشيري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وذكر الشيخ عبد الفتاح أبوغدة في تحقيقه لسنن النسائي أن هذا الحديث حسن الإسناد، انظر السنن، للنسائي، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، ط٢(١٤٠٦هـ-١٩٨٦م) ج، ص ٢٢٥.

(٢) البزار والكبير للطبراني. أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، باب الطاء، طارق بن أشيم الأشجعي، حديث رقم ٨١٨٦، وقال الألباني إسناده جيد عزيز رجاله ثقات، انظر السلسلة الصحيحة للألباني، ص١٣٣٥.

ثم الصلاة والدخول في سلطان الدولة الإسلامية بأداء الزكاة إلى القائمين عليها والانضواء في الجماعة المسلمة بمنابذة المشركين وموالاة المسلمين، ثم تنضاف أيّةُ شروطٍ أخرى يقتضيها حالُ مَن يؤخذ عليه العهد[1].

❖ ومثال مبايعات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

▪ شأنُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع وفد عبد القيس؛ أَمَرَهم بالشهادة وإقامِ الصلاة وصيام رمضان وإيتاء الزكاة وخُمُسِ المغانم، ونهاهم عن الخمور[2].

▪ ومع أصحاب عوف بن مالك الأشجعي: «**أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا وتصلُّوا الصلوات الخمس، وتسمعوا وتطيعوا... ولا تسألوا الناسَ شيئًا**»[3].

---

(١) طبقات ابن سعد. ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي المعروف بابن سعد ت (٢٣٠هـ)، الطبقات الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، ط١(١٤١٠هـ-١٩٩٠م)، ج١، ص٢٥١.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب وفد عبد القيس، حديث ٤٣٦٨، من حديث أبي جمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه مسلم في صحيحه، باب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله، وشرائع الدين، والدعاء إليه، حديث رقم ١٨، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب كراهة المسألة الناس، =

❖ ومثال مكاتباته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

▪ كتابه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لشيخ جندم: «**هذا كتابٌ من محمَّد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمالك بن أحمر ولمن اتَّبعه من المسلمين أمانًا لهم ما أقاموا الصلاةَ وآتوا الزكاة وجانبوا المشركين وأدَّوا الخُمُسَ من المغانم وسهمَ الغارمين... فهم آمنون بأمان الله وأمان محمَّد رسول الله**»[1].

فالصلاة والزكاة – بعد الشهادة – أبرزُ شروط عهد الدخول في أمَّة المسلمين وأمانهم؛ لأنهما سمتان بينتان؛ إقامُ الصلاة تكليفٌ للفرد والجماعة لا يرتفع، وجمعُ الزكاة واجبٌ على الجماعة من أغنيائها لا يجوز تعطيله.

ولذلك حين جاءت الظروف الحاسمة ووقع الأمرُ بطرح عهودِ المشركين وتطهيرِ بلاد العرب من الشرك كانت آيةُ الإسلام الظاهرةُ التي تفرِّقُ بين أهل الجاهليَّة الذين ينبذ إليهم بالعداء وأهلِ الإسلام ذوي الحرمة والأمان هي الصلاةُ

= حديث رقم ١٠٤٣، من حديث أبي مسلم الخولاني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) أخرجه الطبراني، في المعجم الأوسط، باب الميم، من اسمه محمد، رقم ٦٨١٩، من طريق مالك بن أحمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد(ج١، ٢٩)، وقال: في إسناده: سعيد بن منصور الجذامي، ولم أقف له على ترجمة.

والزكاة: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[التوبة: ٥].

فلا أمان للمشركين حتى يدخلوا في شرط الإسلام الظاهر: «**أُمِرتُ أن أقاتلَ الناسَ حتى يقولوا: «لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا منِّي دماءهم وأموالهم إلا بحقِّ الإسلام، وحسابهم على الله**»[1].

فإذا تحلَّوا بحلَّة الإسلام تلك؛ فلهم بعد العداء الإخاءُ: ﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[التوبة: ١١].

بل إنَّ الصلاةَ قبل الزكاة قد تكون العلامةَ الحاسمةَ التي تميِّز فئةَ المسلمين؛ لأنَّها عملٌ دائمٌ متوالٍ، وظاهرةٌ تتجدَّدُ مراتٍ في اليوم الواحد، تشهد لصاحبها بالإسلام؛ ولذلك اتخذها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آيةً للإسلام في علاقاته مع القبائل العربية: «**العهد**

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الناس إلى الإسلام زالنبوة، وأن لا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله، حديث ٢٩٤٦، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر» [١]، **«بين الرجل والشركِ تركُ الصلاة»** [٢].

وقد تسامحَ النبيُّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع وفد ثقيف إذ بايعهم فأعفاهم من الصدقة والجهاد، وإنَّما أجَّلهم لأنَّه كان واثقًا أنهم متى أسلموا وحَسُنَ إسلامهم تصدَّقوا وجاهدوا، ولكنَّه لم يتسامح لهم شيئًا في الصلاة؛ لأنَّ الدِّين لا يستقيم دونها: «إنَّ وفدَ ثقيف لما قدموا على رسولِ الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنزلهم المسجدَ ليكونَ أرقَّ لقلوبهم، فاشترطوا عليه ألا يُحشَرُوا ولا يُعشَروا ولا يُجَبُّوا، فقال رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **لكم ألا تُحشَرُوا ولا تُعشَرُوا، ولا خيرَ في دينٍ ليس فيه ركوع»** [٣].

---

(١) رواه الترمذي في سننه، أبواب الإيمان، باب ما جاء في ترك الصلاة، حديث رقم ٢٦٢١، من حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب. انظر سنن الترمذي، تحقيق د شاكر، ج٥، ص١٣ .

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة، حديث رقم ٨٢، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) رواه أبو داوود في سننه، كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب ما جاء في خبر الطائف، حديث رقم ٣٠٢٦، من حديث أبي العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وحُكِمَ عليه بالضعف، انظر سنن أبي داوود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ج٣، ص ١٦٣ .

وكان أذانُ الصلاة شعاراً يدلُّ على المسلمين، «فكان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا غزا قومًا لم يَغزُ حتَّى يصبحَ وينظرَ فإن سمع أذانًا كفَّ عنهم، وإن لم يسمع أذانًا أغار عليهم»(١)، وكذلك اتخذه المسلمون من بعد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكان أبو بكرٍ إذا بَعَثَ جيشًا لحرب أهل الردة أمرهم ألا يقاتلوا أحداً حتى يدعوه إلى داعية الله: (والداعية الأذانُ، فإذا أَذَّنَ المسلمون فأَذَّنُوا كُفُّوا عنهم وإن لم يؤذِّنُوا عاجلوهم)(٢).

وكما أنَّ إقامَ الصلاة رأسُ الشروط وأَبْيَنُ الآيات لدخول الرعيّة في ولاء السلطان المسلم؛ فإنَّه الشرطُ الحاسمُ للصبر على طاعة الأمراء، وحدُّ الطاعة للسلطان. فالمسلمُ مكلَّفٌ بأن يصبر على الحكام الظالمين، وألا يخرج عليهم فيفارقَ الجماعة ويخربَ وحدتها السياسية، وإنَّما له أن يُنكِرِ المنكَرَ ويأبى الطاعةَ لكلِّ أمرٍ فرديٍّ يكون فيه معصيةُ الله، حتى إذا عطَّل الأميرُ الصلاةَ فحينئذٍ تجوز المنابذةُ والخروج: «**خيار**

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب ما يحقن بالأذان من الدماء، حديث ٦١٠، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر ت (٣١٠هـ) تاريخ الطبري، دار التراث - بيروت، ط٢ (١٣٨٧هـ)، ج٣، ص ٢٥١.

أئمَّتكِم الذِين تحبونهم ويحبونكم، وتصلُّون عليهم ويصلون عليكم، وشرار أئمَّتِكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم». قلنا: يا رسولَ الله، ألا ننابذهم؟ قال: «**لا ما أقاموا الصلاةَ، لا ما أقاموا الصلاة، لا ما أقاموا الصلاة، ألا مَن ولي عليه والٍ فرآه يأتي شيئًا من معصية الله، فليَكره ما يأتي من معصية الله ولا ينزعنَّ يداً من طاعة**»[1].

«**إنَّه يُستَعمَل عليكم أمراءُ فتعرفون وتنكرون، فمَن كَرِهَ فقد بَرِئَ، ومن أنكرَ فقد سَلِم، ولكن مَن رَضِيَ وتابع**»، قالوا: أفلا نقاتلهم؟ قال: «**لا ما صَلَّوا**»[2].

وخلاصة القول: أنَّ إقامَ الصلاةِ شرطٌ في الإسلام، وأنَّها من دون الطاعات العملية الأخرى تكاد تكونُ الفارقَ الحاسمَ بين الكفر والإسلام، كما تقدَّمَتْ في ذلك النصوصُ، وكما يروى عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بين الكفر والإيمان تركُ الصلاة»[3]، «**بين**

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب خيار الأئمة وشرارهم، حديث رقم ١٨٥٥، من حديث مالك الأشجعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب الإنكار على الأمراء فيما يخالف شرع الله وترك قتالهم ما صلوا، ونحو ذلك، حديث رقم ١٨٥٤، من حديث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) رواه الترمذي في سننه، أبواب الإيمان، باب ما جاء أفي ترك الصلاة، حديث رقم ٢٦١٨، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحُكِمَ عليه هذا =

العبد والكفر تركُ الصلاة»[1] . ولذلك كان أصحابُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**لا يرون شيئـًا من الأعمال تركُه كفرٌ إلّا الصلاة**»[2] .

وتعطيل سنَّة الصلاة لا سيَّما بالنسبة للجماعة من الناس ظاهرةٌ تنافي الإسلامَ، ولكن تركُ الصلاة ليس بذاته كفراً بائنـًا يُخرِج المرءَ من ملّة الإسلام خروجـًا باتّـًا. فكفرُ الملَّةِ هو الكفر الأصلِ الذي ينطوي على الإلحاد، أو الشركِ بالله، أو تكذيبِ الرسالة، أو جَحدِ ما تقتضيه بالضرورة القاطعة، أمَّا كفرُ المعصية فهو شعبةُ كفرٍ لا تنسخ أصلَ الإيمان، وإنما تطرأ

= حديث حسن صحيح، انظر سنن الترمذي، تحقيق أحمد شاكر وآخرون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، ط٢ (١٣٩٥هـ–١٩٧٥م)، ج٥، ص١٢.

(١) الترمذي وأبو داود. رواه الترمذي في سننه، أبواب الإيمان، باب ما جاء أفي ترك الصلاة، حديث رقم ٢٦١٩، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحُكِمَ عليه هذا حديث حسن صحيح، انظر سنن الترمذي، تحقيق أحمد شاكر وآخرون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، ط٢ (١٣٩٥هـ– ١٩٧٥م)، ج٥، ص ١٣ .

(٢) رواه الترمذي في سننه، أبواب الإيمان، باب ما جاء أفي ترك الصلاة، حديث رقم ٢٦٢٢، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحُكِمَ عليه هذا حديث صحيح، انظر سنن الترمذي، تحقيق أحمد شاكر وآخرون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، ط٢ (١٣٩٥هـ– ١٩٧٥م)، ج٥، ص ١٤ .

على المرءِ المسلِم إذا عمل بعمل الكفّار كما تطرأ على المسلِم خصلةٌ من النفاق، أو جنحةٌ من الجاهلية. ويكفيه لإتمام دينِه أن يثوبَ إلى العمل الصالحِ ويستقيمَ عليه، إلّا إذا أحاطت به خطيئتُه فأصبح كافراً أو منافقـاً أو جاهليـاً؛ إذ لا ينجيه إلا الدخولُ في الإسلام من جديد.

فللسلطة المسلمةِ - في الظروف الحاسمةِ التي تتمايزُ فيها الملُل - أن تستهديَ بآيةِ الصلاة الظاهرةِ فتصحب الكفرَ في حقِّ الجماعة التي تعطِّلُ الصلاةَ فتخلعها بذلك من إخاء الإسلام وأمانِه، وللمسلمين أن يسمُّوا تاركَ الصلاةِ باسم الكفرِ من حيث ذلك العمل.

فإن تبيَّن المسلمون من معطلة[1] الصلاةِ ولاءً بعد الإسلام، أو علموا في هاجرِ الصلاة أصلاً من عقيدة الأمَّة؛ حملوهم على ما ينبغي من شعائر الدين، ولم يسنُّوا بهم سُنَّةَ الردَّةِ المطلقة، فترك الصلاة كفرٌ دون الكفر الأكبر.

٣- آية المسلم وشارة استقلاله:

قد شاع في هذا العصر الذي سادت فيه الثقافةُ المادِّيَّة الأوربية تصورٌ للدين يجعله شأنـاً خاصّـاً بالمرء ليس من الكياسة

(١) لعل الصواب: معطل.

المجاهرة به، وإقحامه في العلاقات العامة. وذلك أنَّ الغلوَّ في التظاهرِ والتنافسِ الدينيِّ قد ولَّدَ قديمـًا في أوربا عصبيةً دينيةً خربت تاريخها بحروب العقيدة، وأنَّ الدين قد اضمحلَّ أثرُه عمومـًا في الحياة الأوربية فَلَمْ يَعُدْ في العلاقات الاجتماعية شأنٌ كبير لإظهارِ الجنسيَّة الدينية، أو لتعرف الانتماءِ العقديّ للفرد.

أمّا المسلمُ فله في الصلاة ما يشهره دائمـًا بين الناس، فلا يعاشره أحدٌ يومـًا أو بعضَ يوم إلا وهو يقومُ لصلاته ذات الحركات المتميّزة والأوضاع الظاهرة، فينحاز ويتعرَّف دون إعـلانٍ بالكلام، ولهذه الحقيقة معنىً ذو بـالٍ يتَّصل بهدى الإسلام في العلاقات العامة:

فالإسلام يرشد أتباعَه إلى التضامن والإخـاءِ، ويرشدهم إلى الاجتهاد في تعرُّف بعضِهم إلى بعضٍ وتقرُّبِه، وينظِّم لهم كثيراً من آداب السلوكِ لتتماثل سماتُهم الظاهرة فيتعارفون بها ويتضاعف استشعارُهم لوحدتهم الدينية.

وفرضُ إقامةِ الصلاة له أثرٌ كبيرٌ في دعم هذا التوجيه؛ يعرف المسلمُ أخاه لتوِّه إذا رآه ينخفض ويرتفعُ بالخضوع لله، فيُقبِلُ عليه بما يرجى أن يُثمِرَه اللقاءُ من تعاونٍ على الخير.

والإسلامُ يدعو أهلَه إلى الاستقلال بدينهم وألَّا يتَّبِعوا فيه أهواءَ الملل الأخرى بعد أن جاءهم العلمُ اليقينُ ولا يلتمسوا الهُدى في غيرِ أصولِ دينهم، ولا يدينوا بالولاءِ لغير إخوانهم في العقيدة.

وينظِّمُ الإسلام في سبيل تثبيت هذه المعاني طائفةً من آداب المظهرِ يعلِّلُها بمخالفة ما يحيط بالمسلمين من أشكالٍ تمثِّل انتماءً فكريـًا يخالف الإسلامَ، كما جاء في وصايا النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بمجانبة أعرافِ المشركين واليهود بشأن اللحيةِ واللُّبس وأساليب التحيّة.

فالصلاة مظهرٌ إيجابيٌّ دائمٌ يبرز به المسلمُ من دون الناسِ فيزيد ذلك من إحساسه بالتميُّزِ والاستقلال.

والإسلامُ يحرِّض أتباعَه على التصدِّي لدعوة الآخرين إلى الهدى ويؤكِّد عليهم من أجل ذلك الإعلانَ الدائمَ عن مواقفهم، والصدعَ بحقائق الإسلام.

وكم في القرآن من توجيهٍ للرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن يقولَ للناس ويقولَ ويطلق النداءاتِ والبلاغات، وكم فيه وفي السنَّةِ من حضٍّ على الأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر.

فالصلاة مظهرٌ إسلاميٌّ متميّزٌ يقدِّم المسلمَ للناس بصورةٍ تعلِن عن إسلامه وتدلُّ عليه لمن أراد أن يُسَائِلَه عن دينه.

وربّما زُيِّنَ للمرء أن يختصَّ بدينه ويَسْتَسِرَّ بعبادتِه من ذكرٍ وصومٍ ليَسلَمَ من تَبِعات اختلافِه عن الآخرين، ويندرجَ في سائر الناس ويذوبَ في سوادهم لولا الصلاة تبرزُه للناس ليتفاعلَ معهم على أساسٍ من دينهم ودينه.

وقد كانت الصلاةُ في عهد الدعوة المحمديَّة عنوانَ الإسلام ومحطَّ أنظار الذين يراقبون مظاهرَ الدِّين الجديد، سواءٌ منهم مَن يريد أن يهتديَ إلى الذين اعتنقوه ويتعرَّفهم، أو الذي يريد أن يشهرَ انضمامَه إليهم، أو الذي يريد أن يبسطَ إليهم يده بالفتنة. ولهذا المعنى الأخيرِ استخص[1] المسلمون أولَ الأمر بالصلاة ثم جهروا بها لما لزمت سياسةُ الصدع بالدِّين، فتعرَّضوا لشتَّى صنوف الكيد، وكان في هذه المكايدة - على كرهها - خيرٌ كثيرٌ؛ لأنها أظهرت الدعوةَ وأشهرتها وربَّت حَمَلَتَها على الجرأةِ في الحقِّ.

فأشدُّ ما صنعَ المشركون بالنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أوَّل عهده إنَّما استفزَّهم إليه صلاتُه في الحرم: «بينما النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصلِّي في حِجرِ الكعبة إذ أقبل عقبةُ بن معيط فوضعَ ثوبَه في عنقه فخنقَه خنقًا شديداً، فأقبلَ أبو بكرٍ حتى أخذ بمنكبه فدفعه عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[2].

---

(١) لعل الصواب: استخفى.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب ما لقي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من المشركين بمكة، حديث ٣٨٥٦، من حديث عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

«بينما النبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يصلِّي عند البيت وأبـو جهلٍ وأصحابُه جلوسٌ، وقد نُحِرَت جَزورٌ بالأمس فقال أبو جهل: أيُّكم يقوم إلى سَلا جَزورِ بني فلانٍ فيضعه بين كتفي محمد إذا سجد؛ فانبعث أشقى القوم فأخذَه فلما سجد وضعَه بين كتفيه فاستضحكوا...»[1].

وأولُ ذكرٍ قرآنيٍّ لفتنة مشركي مكّة للمسلمين حادث في شأن الصلاة: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾[العلق: ٩ - ١٠].

وكانت مظاهرُ الصلاة بالمدينة أيضـاً هدفـاً لمكايدة اليهود: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾[المائدة: ٥٨].

وقد يحقرُ المرءُ الأثرَ الإعلانيَّ للصلاة؛ إذ لا يلحظُ له شأنـاً كبيراً في حياة مجتمعٍ قوامه المسلمون، ولكنّه ذو مغزى كبيرٍ في المجتمع المختلِط حيث تدعو الظروفُ لتمايز المسلمين وتعارفهم لتنعقدَ بينهم وشائجُ الموالاة والمؤاخاة الخاصّة،

(١) الشيخان. رواه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب إذا ألقي على ظهر المصلي قذر أو جيفة، لم تفسد عليه صلاته، حديث ٢٤٠، من حديث ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من أذى المشركين، حديث رقم ١٧٩٤، واللفظ له.

وليستشعروا ذاتيتَهم المستقلَّة، وحيث تشتدُّ الحاجة لبروزِ المسلمين كي يعلنوا عن دينهم ويحتملوا تبعاتِ اعتقادهم ويستثمروا الفرصَ المتاحةَ لدعوة الآخرين.

وكلُّ هذه المعاني يعيش فيها بالتجربة الشخصية مَن يغترب اليوم عن مجتمع المسلمين، فما يكادُ يقومُ المسلمُ في مشهدٍ من الناس يؤدِّي الصلاة حتى يطلعَ عليه من جمهرة الناس إخوانٌ له مسلمون يشدّون على يده بتحيَّة السلام، ويوثقون معه عُرَى التعارف والودّ، أو ينبري له من غيرهم هازئٌ يستغربُ تلك الحركات العجيبة، أو يُقبِل عليه بحبِّ الاستطلاع جادٌّ يستوضحه معنى الصلاة ويناشده حقيقة الإسلام، فلا يملك أن يتذكَّر ويستشعرَ من ذلك كلِّه ذاتيته الإسلامية.

وكذلك كان للصلاة ما سبق وصفُه من أثرٍ في مجتمع الدعوة الأولى، بها كان يُرى مظهر المسلمين منظراً عجباً متراصّين متراحمين، بل بتثاقل القيام إليها كان يشذُّ ويفتضحُ المنافقون ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ

بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾[الفتح: ٢٩].

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ ﴾[النساء: ١٤٢ - ١٤٣].

وما كانت الصلاةُ سمةً تدلُّ على المؤمنين وآيةً تعرِّف المسلمين وتميزهم من دون الناس لولا أنَّها عبادة عملية ظاهرة ذات أوضاعٍ وحركاتٍ مخصوصة تقامُ في الملأ كما تقام في الخلوة، وأنّها عملٌ يظهر المسلم بتأديته عدَّةَ مراتٍ في اليوم الواحد ويُرَى ملتزمًا به دوم الأيام وفي كلِّ الأحوال، فلنتأمل هذا المعنى الأخير.

الصَّلاة اسْتِغراقٌ دَائِم في عِبَادةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

١- توالي الصلوات إشاعةٌ لروح الدين:

إذا أسفر فجرُ يومٍ جديدٍ وهبَّت الأرواحُ تتهيأ للغدوِّ على الأعمال والأرزاق، وإذا زالت الشمسُ وانصرفَ الناسُ رائحين عن أشغالهم، منهم مَن يأوي إلى بيته للمَقِيل ومنهم من يتناول غداءه ثمَّ يواصل السعيَ، وإذا جنحت الشمسُ وانقطعَ حرُّ النهار للقائلين وأنبت كلالُ العمل للواصلين، وإذا غابت فأدبرَ النهارُ وأقبل الليل، وإذا همَّ المرءُ بأن يسكنَ إلى فراشه وختمَ حسابَ يومه: إذا كان كلُّ وقتٍ من ذلك وجبت صلاةٌ من الخمس المفروضة: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾[النساء: ١٠٣].

وللمسلِم إذا ابتغى الفضيلةَ أن يقطع زحمةَ نهاره بركعات الضحى، وأن يقطع سكونَ ليله بالقيام، وأن يتحرّى أوقاتَ النفلِ الأخرى يعمر يومه بالصلاة.

وقد أراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعباده اليسرَ فاقتضت رأفتُه وحكمتُه أن يرفع الفرضَ عندما ينطلق الناس لأشغال المعاش، وعندما يخلدون لراحة المنام، وأن يجعلَ في أوقات الصلوات المكتوبة

فسحةً ترفعُ الحرجَ عمَّن تلحُّ عليه الشواغل في بعض ذلك الوقت، وتتيح له مجالاً يتوخَّى فيه بصلاته لحظةً هي أجمع لخواطره وأخلى لباله.

والمسلم الذي يهتمُّ لعبادته ويعظم أمرَها يضبط الأوقاتَ ويراقبُ مرَّ الزمان ليحفظ صلاته لوقتها.

وعلى هامش الانتباه للصلاة، ومن جرّاء تلك المراقبة، يعيش المسلِمُ في يقظةٍ دائمةٍ مستشعِراً مرَّ أوقاته ومقدراً حسابَ زمانه ومستذكراً أنَّه مسؤول عن طاقات حياته، فِيمَ أفناها وعن أيَّام عمره فِيمَ قضاها.

وشرُّ ما يُبتلَى به الإنسانُ الغفلةُ السائبة تسلمُه إلى تبديد أوقاته وإضاعةِ حياته من حيث لا يدرك أنها فرصٌ لا تفوت ولا تتجدَّد أبداً.

وكم مِن لاهٍ يُهلِك وقتَه وحياته ولا يكاد يعي للساعات الضائعة حسابًا أو يقدِّرُ ما فرَّطَ في سوانح الفرص وممكنات العمل الصالح والإنتاج المثمر.

ففي الصلاة وانتظام أوقاتها المتوالية تنبيهٌ إلى مراحل الوقتِ، وهي تطوي أَجَلَ الحياةِ شيئًا فشيئًا.

وما تأخذ الصلاةُ من يوم المرء هو زكاةُ الوقت وحقُّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الراتب من كل يوم، ومن هذا الوجه تتضمّن الصلاة

معنىً من زكاة المال من حيث إنها اقتطاعٌ من رأس مال الحياة، ومن مجال اكتساب الثروة وإنمائها.

فأمّا مَن أعطى واتَّقى فهو الذي يخرج زكاةَ ماله كما يحتسب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من حياته كلَّ يوم وقتـًا ينتقصه من ساعات اللهو والارتزاق، وأمّا من بَخِل واستغنى فذلك الذي يمنع زكاة مالِه ويقبض يدَه عن الصدقات، والذي يتلهَّى عن الصلاة إذا عزَّ وقته بأغراض الكسب ومصالح المعاش، أو إذا ألحَّت عليه دواعي اللهوِ ومتعِ الحياة. ومن بَخِلَ فإنَّما يبخل على نفسه ويذهب بركات رزقِه وتنمحق أوقاتُه، ومن يوق شُحَّ نفسِه فأولئك هم المفلحون:

﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[النور: ٣٧ - ٣٨].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[الجمعة: ٩ - ١١].

والمبذِّرُ في المال أخو الشيطان، ومثله الذي يبذِّرُ وقته ويستغرقُه في غيبوبةِ الخمر ومتاهات اللهو، فيفنى في الباطلِ حقُّ الذِّكرِ والصلاة: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾[المائدة: ٩١].

وما يفوت المسلِمَ من شيءٍ من زادِ الدنيا بزكاةِ الوقت؛ فهو يعتاضه عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مضاعفًا، وخيرُ الزادِ التقوى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾[طه: ١٣٠ - ١٣٢].

وأكبر الآثار لمراقبة الوقتِ وتزكيته بالصلاة مراتٍ متواليةٍ إنَّما هو إشاعةُ ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ووصله على مدار اليوم؛ ذلك أنَّ الصلاةَ في جوهرها ذكرٌ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بما تشتمل عليه من تمجيده وتوحيده، وما تدعو إلى طاعتِه وتقواه والتوبة إليه والتوكل عليه، وتهدي إلى عبادته بالنيَّة الصادقة والقولِ الطيّب والعمل الصالح، فهي أكبرُ سببٍ لذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتواليها

أثبتُ الدواعي لدوام ذكره ليلاً ونهاراً: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾[هود: ١١٤].

﴿ ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ﴾[العنكبوت: ٤٥].

﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾[الأعلى: ١٤ - ١٥].

ويترتَّب على ما تقدَّم: أنَّ الصلاةَ بتواليها فرضًا ونفلاً وتخلُّلِها لأوقاتِ اليوم جميعًا، واتِّصالها بأعماله كلِّها؛ توحِي إلى المصلي بأنَّ الحياةَ كلَّها - مهما كانت صروفُها - مجالٌ لذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أو مسرحٌ للتدين، وأن ليس التدينُ نشاطًا يؤخَّر لوقته المخصوصِ بالقداسة ويتحلَّل منه المرءُ في سائر أوقاته، ولا الحياة شركٌ بين التجردِ لشأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والتفرغِ لأغراض الدنيا؛ لأنَّ الناس لا يجعلون لدينهم وقتًا أو مَوسمًا مخصوصًا إلا جعلوا ما سواه لغيره. ومهما تكن الأوقاتُ التي يتحيّنُها العابدُ للاجتهاد في الذكر ونفلِ الصلاةِ فإنَّ الصلوات الخمس والنوافل الراتبة تنتشرُ في اليوم كلِّه وتجاوِرُ شتى الأعمال اليومية التي يتوخى بها الإنسانُ لأوَّلِ مرَّةٍ أغراض

الدنيا، فإذا تزاوجت شعائرُ العبادة مع صروف الحياة سَرَتْ في هذه من تلك روحُ الدين ومعانيه.

فالصلاة وظيفةُ تعبُّدٍ محضٍ، توقِظُ في المصلي بالضرورة مشاعرَ الدين الخالصة، فإذا أحاطت طوالَ اليوم بأعمال الإنسان أفاضت عليها من روح التعبُّدِ، والمصلي الذي لا ينفكُّ يومُه في ذكرى تتجدَّدُ بالتوالي بمعاني دينه يُقبِلُ على سائر شؤونِه بتلك الذكرى، فيؤسس أعمالَه جميعًا على نيَّةٍ خالصةٍ مبتغيًا بها وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ولولا توالي الصلوات لبَعُدَ بالإنسان العهدُ وطالت الفترةُ فأدركه النسيانُ والغفلة، وشغلته الهمومُ والمصالح العاجلة التي تكتنف أعمالَه اليومية، ولتقلَّبَ في شؤون حياتِه لا يعي إلَّا بأغراضها السطحية، ولا يعلم إلَّا ظاهراً من الحياة الدنيا.

فاختلاطُ الصلاةِ بأعمال اليوم التي لا تحمل معنى الدِّين لأوّلِ وهلةٍ يبسطُ معنى العبادة فيها، وينبّهُ إلى أبعادها الدينية وإلى عنصر الابتلاء والمسؤولية فيها.

ومتى ما باشرَ الإنسانُ أعماله كلَّها بهذا الوعي انصلحت نيَّاتُه ومقاصدُه واستقامت مآخذُه ومسالكه؛ لأنه يجعلُ من ضميره رقيبًا على تكييف غاياته وضبطِ وسائله بمعايير الأخلاق وقيم

الدِّين، وتصاحِبُه تلك الحالةُ طوالَ يومه ثم تدوم معه على مدى الأيَّام.

وتتَّصل الصلاة من هذا الوجهِ بوظيفة الذكر؛ فالأذكار المأثورةُ عن مختلفِ الأعمال والظروفِ إنَّما تهدف إلى إحياء الوعيِ الدينيِّ وبثِّهِ في الحياة، فالمسلم إذا سمَّى اللهَ عند الشروع في أعماله، وحمد الله إذا فرغ منها، واستغفر ربَّه، أو دعاه عند الحوادث؛ إنما يوقِظُ من شعوره الروحيّ ويجدِّدُه حتى يغمرَ أعمالَه وأحوالَه جميعـًا بمعنى الدِّين، ويجعلَ من حياته كلِّها عبادةً لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهو فيما يواجه صروفَ الدنيا ويقضي فيها شؤونَه المعتادة؛ يزكِّي نفسَه ويطهِّرها، ويكسب الحسنات، ويتَّخِذ من كلِّ عملٍ صدقة؛ إذ يأتي المباحَ بنيَّة العبادة، ويكفُّ عن المحظور بتقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وما يكون لبشرٍ بالطبع أن يبلغَ هذه الحالةَ الكاملةَ فيظلَّ في أوقاته جميعـًا ذاكراً غيرَ غافلٍ، ويدومَ عمرَه كلَّه موصولاً إلى ربِّه مشدوداً إلى حبل العبادة، ولذلك ما جعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الدِّين من حرجٍ، ولم يشرع الفرائضَ إلَّا في فترات معلومةٍ لضمان الحدِّ الأدنى من شيوع روح الدِّين في الحياة، ثم وصَّى فيما وراءَ ذلك بنفلِ العبادات ونَدبِها ليرتقيَ في مسالكها السابقون والمقرَّبون كَلٌّ إلى مقامه المعلوم.

وقد وُضِعَتْ سائرُ الشعائرِ التعبديَّة على هذا النمط؛ ليأخذَ كلُّ مسلمٍ بحظِّه من دوام ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

فالصومُ عبادةُ شهرٍ في كل عامٍ يتجرَّد فيه المسلمُ من طعامه وشهواته طولَ النهار، ويلقى من ذلك تربيةً على الصبر، وتجربةً في الحرمان، ويعيش في فيضٍ من ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وتقواه شهراً؛ ينبغي أن يبقى أثرُه بقيَّةَ الحَولِ، ولكنَّه يجدِّدُ ذلك الأثرَ تطوُّعـًا بصيام أيّامٍ معلومةٍ من كلِّ أسبوعٍ أو من كلِّ شهرٍ أو من كلِّ عام.

والحج عبادةٌ تحيي خامِلَ الشعورِ الدينيِّ بزيارةٍ إلى بيت الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وتعهُّدِ مناسكِ الحرم، واقتفاءِ آثار إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ رائدِ الحنيفيَّة، واتباعِ سنَّةِ خاتم النبيين صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومشاهدة وفودِ المسلمين من أقطار الدنيا، وتلك شحنةٌ ضخمةٌ من روح الدِّين فُرِضَ على المسلِمِ المستطيعِ مرّةً في العمر، ويتعرَّض لها إن شاءَ كلَّ عامٍ نفلاً، ويستزيد منها متى ما تيسَّر له بالعمرة والطواف.

والزكاة صدقةٌ تطهِّرُ مَن يُخرِجُها وتزكِّيه فضلاً عن إسعاف الفقير، وإذا كانت واجبةً كلَّ عامٍ فإنَّ أبوابَ الرحمةِ مفتوحةٌ أبداً لمن أرادَ أن يتطوَّع بالصدقات ويُقرِضَ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قرضـًا حسنـًا.

أما الأذكار فجلُّهَا فضيلةٌ ميسرةٌ للراغبين، ولذلك كان المأثورُ منها أفشى في أوقات المسلِم وألصقَ بحياته.

وتتصل الصلاةُ مع سائر هذه العبادات في تجديدِ الوعيِ والذكرِ المتواصِل، ولكنَّها بفَرضِها - فضلاً عن نفلها - تتعاقبُ في اليوم الواحد خمسَ مرّات، فهي من حيث تواليها أوسعُ أثراً في حياة المسلم من الحجِّ والصوم والزكاة، وهي من حيث أركانها أملكُ للنفس وأعمقُ أثراً من الأذكار والآداب التعبدية؛ ولذلك فُضِّلَت الصلاةُ على سائر الشعائر بفضلها في نشر معنى العبادة، بل لأنَّها تضمَنُ معنىً من كلِّ عبادةٍ أخرى كما يتبيَّن في مواضع من هذا الكتاب.

ولمزيتها تلك كانت الصلاةُ في الدين أوَّلَ الفرائض العمليّة وأكبرها، ولجلال أثرها على عملِ المسلِم وحياتِه يذكرها القرآن كثيراً ضمنَ الأعمال الصالحة وفي رأسها[1].

وتؤكِّد الصلاةُ - وأخواتها - بإشاعتها روحَ الدين في الأعمال وإحالتها الحياةَ كلَّها إلى عبادةٍ تؤكِّدُ مبدأَ وحدة الحياة الذي يقوم عليه التصوُّرُ الديني في الإسلام.

---

(١) تجد ذلك واضحاً في سورة المؤمنون ١-١٠ وسورة المعارج ١٨-٣٥. إلخ.

وكلُّ الدِّين ينبغي أن ينتظمَ الحياةَ بشتَّى وجوهها، ويشمل جميعَ شؤون الإنسان، إذ ما يكون له – من حيث إنه توجيهٌ من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لهداية البشر – أن ينيرَ لهم جانباً من الحياة ويتركهم وراء ذلك في ظلمات الضلال، ولا يكون له – من حيث هو توجُّهٌ من العباد لعبادة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ – أن يعني التزاماً بالطاعة في جانب وتمرداً في سائر الجوانب. ولكن المعتقدات الدينيّة الوضعيّة مطبوعة بطبيعة الفكر البشريّ المحدود بظروف البيئة وحاجاتها، فهي تقتصرُ تبعاً لذلك على بعضٍ من شؤون الحياة.

أمَّا الديانات التي نشأت عن أصلٍ وحيٍ فقد ضاعت أصولها وتطرَّق إليها الوضعُ، وكانت سنَّةُ التاريخ الغالبةُ في ذلك أن يتمثّل الدينُ في رجال الدين الذين يجمدون به لجهلهم ويقلصون مداه أو يبغون به لأغراضهم، فينزع الناسُ للتحرُّرِ من سلطان الاستغلالِ، وقد يعزى التحلُّلُ من شمول الدين وقيوده إلى جنوح الناسِ إلى عاجلِ مسرَّات الحياة الدنيا، أو نزوعِ ذوي السلطةِ السياسيّةِ والاقتصادية إلى التمكين لأهوائهم وظلمهم. ومهما يكن فإنَّ الأمرَ انتهى بالديانات إلى أن تحاصرَ في الطقوس والأشكالِ وتُصرَفَ عن أمهات شؤون الحياة إلى الشؤون الشخصيّة وينعزلَ بها أهلُها إلى حدود جدران المعابد

بينما يعربِدُ الناس في عرض الحياة بلا ضابطٍ ولا دليلٍ، ويستبدُّ أصحاب السلطة بالسيادة والتشريع.

والصلاةُ وقاية من هذا الانحراف في الإسلام الذي يحفظه من التمزق خلودُ أصولِه، وبناءُ تعاليمه كلِّها على مبدأ وحدة الحياة الدينية.

والذي يَعنِينا هنا هو الحكمةُ في اختلاط الصلاة بأعمال اليوم، وسنرى في الصلاة من وجوهٍ أخرى تأكيداتٍ لهذا المبدأ، بل سنرى كيف تحتوي على معانٍ من جميع العبادات الأخرى وايحاءاتٍ من التعاليم الاجتماعية والسياسية، فهي مدرسةٌ تربويةٌ شاملة.

ولا تمثُّلُ وحدة الدين من حيث الشمول فحسب، بل تصوِّر اتساقَ معانيه وتوافقَ تركيبه الداخلي ووحدةَ أسراره الجوهرية التي تتجلَّى في عباداته، كما تظهر في معاملاته وتبرز في آدابه كما تبدو في تشريعاته.

ولنقرأ في ذلك كلمةً من كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيها إشهادٌ لعقيدة الإسلام، حيث يسلِّم الإنسانُ نفسَه وحياته جميعًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولِنَرَ ما هو موضعُ الصلاة في تلك الكلمة: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣].

٢- دوام الصلاة ودوام الذكر والعمل.

كما يتوالى فرضُ الصلاة ونفلُها على المسلِم على مدار يومه تدومُ عليه طوال عمره وعبرَ كلِّ ظروف الحياة، لا يرفعها عنه عذرٌ من مرضٍ ولا مانعٌ من سفرٍ ولا شاغلٌ من خوفٍ ولا اعتبارٌ لظروف المكان، والذي يرتفع عنه في كلِّ ذلك إنما هو حَرَجُ أدائها على وجهها وبنفلها المعتاد، ولكن أصلها يظلُّ فرضـًا ثابتـًا في كلِّ حال.

فأينما انتقلَ المسلِمُ لازمته فريضةُ الصلاة يؤدِّيها حيثما تيسَّر له، وللمصلِّي مسجدٌ صالحٌ في كلِّ بقعةٍ طاهرةٍ من الأرض، وفي كلِّ منزلٍ ومقامٍ، وهذا الحكم من الخصائص التي أُعطِيَها النبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ دون غيره: «**جُعِلَت لي الأرضُ مسجداً وطهوراً، فأيما رجلٍ من أمَّتي أدركته الصلاةُ فليصلِّ**»(١).

وفي هذا الحكم تحقيقٌ وتأكيدٌ لشمول الدين وإحاطته، فالأرض كلُّها معبدٌ لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ومسرحٌ للدين، لا تنحصر الصلاةُ في البِيَعِ والمحاريبِ، ولا تنفصمُ شخصيَّةُ الإنسان فتراه عابداً متبتِّلاً بين جدران بيت الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فإذا خرج عَربَدَ به هواه كأنما خرج من حدود سلطان الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وإنما يدوم

(١) البخاري، كتاب الصلاة، بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: جُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ،حديث ٤٣٨.

المرءُ على حالٍ واحدٍ من عبادة الله كيفما تقلَّبت[1] به المكان ويتَّقي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حيثما كان.

وإذا أعجز المسلمَ الماءُ فلم يتيسَّر له الطَّهورُ المعتاد وخاف فوتَ الصلاة، أو إذا تعذر عليه استعمالُ الماء بسبب المرض؛ كان له أن يَتيَمَّمَ صعيداً طاهراً ويتهيأَ للصلاة بلا حرج: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[المائدة: ٦].

وإذا أقعده المرضُ عن إتمام الصلاةِ عن قيامٍ فلا إعفاء له منها، وإنما تجبُ عليه عن اعتمادٍ أو جلوسٍ أو إيماءٍ – على قدرِ مبلغِ العلَّةِ منه – حتى لا ينفكَّ أبداً عن ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: «**صَلِّ قائمًا فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جَنبٍ (وإلَّا فأومِ)**»[2].

---

(١) لعل صوابه تقلّب.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب أبواب تقصير الصلاة، باب إذا لم=

ومَن كان على سفرٍ فاضطربت أحوالُه بذلك أياماً قُصِرَتْ صلاتُه تخفيفاً حتى لا يشقَّ عليه تعهد الصلاة بالإقامة التامَّة، وليكون موصولَ الحبلِ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أينما حلَّ وارتحل.

حتى ساعة القتالِ لا تسقطُ عن المسلم الصلاةُ، بل هي ساعةٌ تزداد فيها حاجته إليها، يستعين بها على الصبر في مقام الخوف، ويستمد منها القوة على الجهاد، ولذلك عني القرآنُ بصلاة الخوف وفصَّلها تفصيلاً: ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ ۖ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [النساء: ١٠١ - ١٠٢]. وبذلك يتمُّ التوفيق بين مقتضيات الحذر وبين ضرورة المداومة على الصِّلَة بالله.

= يطق قاعداً صلى على جنب، حديث ١١١٧، من حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فإذا كانت مناهضةُ الحصون ولقاءُ العدوِّ كان الحكم ما روى البخاريُّ عن الأوزاعي: «إن كان تهيأَ الفتحُ ولم يقدروا على الإيماءِ أخَّروا الصلاةَ حتى ينكشف القتالُ، أو يَأْمَنُوا فيصلُّوا ركعتين، فإن لم يقدروا صلَّوا ركعةً وسجدتين، وإن لم يقدروا فلا يجزيهم التكبيرُ ويؤخرونها حتى يأمنوا».

وكما يثبت مبدأُ الصلاة برغم تقلُّبِ أحوال المسلِم يثبت كذلك على اختلاف أحوال المجتمع المسلِم، فينتظم فرض الصلاة مراحل تطوُّر ذلك المجتمع من عهد الدعوة المستضعفة -إذ تدعو الصلاةُ للصبر الجميل- إلى عهد الدولة العزيزة إذ تأمرُ الصلاةُ بالمعروف وتنهى عن الفحشاء: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ [النساء: ٧٧]، ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾[الحج: ٤١].

ودوام الصلاةِ واطرادُها على اختلاف الأحوال والأزمنةِ صفةٌ تميِّزُها عن سائر التكاليف العمليَّة، فعامَّة التكاليف - سوى أركان الإسلام الأساسية: الصلاة والزكاة والصوم والحج - منوطةٌ بمصالحَ معيَّنةٍ تدور معها، فتثبت برجاء

المصلحةِ وترتفع بانتفائها أو نفادها، أو رهينةٌ بعلاقات الناس تَجِبُ في أوضاعٍ معيَّنة وتسقطُ بالإعفاء وغيره.

أمَّا أركان الإسلام المتقدِّمة فهي واجباتٌ عينيَّةٌ وحقوقٌ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا تتخلَّف، ولكن الصلاة من بين تلك الأركان تتميَّز بصفة الدوامِ؛ لأنَّ الصومَ لا يجب إلا للمستطيع، والحج لا يلزم إلا من وَجَدَ إليه سبيلاً، والزكاة لا يخرجها إلا من مَلَكَ النصابَ، أمَّا الصلاة فلا تسقطها أعذارُ الطاقة وإنما تخفَّفُ أركانها لرفعِ الحرج، ويبقى أصلها لئلَّا تتخلف معانيها الجليلة.

فهي بهذا الدوامِ حدٌّ أدنى من الالتزام العمليِّ الدائم يتحمَّله المسلمُ بعد شهادة الإيمان، وهو يؤدِّيها زكاةً يوميَّةً كما قدمنا مهما عزَّ وقته بمشاغل الدنيا وبصَوَارِفِ اللهوِ، ويتعهدها سُنَّةً معتادةً طول عمره، تذكرةً وصلةً بربِّه وتعبيراً عن التدين والعبادة على مستوى ثابت لا ينقص إذا لم تزده تكاليف دينية أخرى تأتي على قدر طاقة الإنسان وحسب ظروفه.

والحكمةُ الواضحةُ في فرض الصلاة على هذا النحو الذي لا يتوقَّف هي ضمانُ استمرار آثارها العظيمة في كلِّ حالٍ من أحوال المسلِمِ وعبرَ ظروف الحياة، فإذا كان في الصلاة ما يصرف عن المرءِ سيِّءَ الأخلاقِ ويجلب إليه مكارمَها، وما يربِّيه على

الصبرِ ويزوِّده بالطاقة للعمل، وإذا كان فيها على وجهِ الإجمال ما يزكِّي صلةَ المرءِ بربِّه ويحسن صلتَهُ بالمجتمع؛ فإنِّها جديرةٌ بألَّا تتراخى حتى لا تضعفَ آثارُها، وألا تنقطعَ حتى لا تنبَتَّ بركاتُها، وأن تدومَ وتطَّرِدَ في كلِّ حالٍ معراجاً متاحاً وميقاتاً ثابتاً لا يخلفه العبدُ مع ربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يجده تجاهه حيثما كان، ولتكونَ قرَّةَ عينِ المسلمِ يلتمس فيها العِظَةَ البالغةَ في كلِّ حالٍ، والهدايةَ المبنية[1] في كلِّ موقفٍ، والطمأنينة التامَّة في كلِّ نازلة، ويجد فيها الوفاءَ الشافي بسائر الحاجات والظروف؛ ولذلك جاءَ أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالمحافظة على الصلوات والمداومة عليها في كل الأحوال: عند الأمن والخوفِ، وفي السراء والضراء، ولدى الحلِّ والترحال؛ ليقوم المسلِمُ دهرَه أبداً ذاكراً لا تتمكن منه الغفلةُ ولا يستحوذ عليه الشيطان: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾[البقرة: ٢٣٨ - ٢٣٩].

ومن النتائج التربويَّة للصلاة عند مَن يتعهَّدُها ويتخذها سنَّةً دائمةً أنَّها تُورِثُ الإنسان روحَ المواظبةِ على كلِّ واجبٍ، والمداومة على كلِّ عمل.

---

(١) لعل الصواب: المبيِّنة.

والمرء قد يكون عريضَ الهمَّة، طويلَ الأمل، ولكنَّه ما يُقبِلُ على تحقيق عزمِه حتى تثقلَ عليه الأعباءُ والتكاليف، أو تلهيه الخواطرُ الطارئة، فتفترُ عزائمُه وتنقطع جهودُه فتتخلف الإنجازاتُ وتخيب الوعودُ، ولكنَّ المصلِّيَ يستفيد من موالاةِ الصلاة معانٍ في الوفاء للواجب في وقته، وفي تعهده بعزمٍ لا يفتر ولا ينقطع على تعاقب الأيام، فيتربَّى بذلك على المثابرة في سائر أعماله وعلى وصلِ جهوده في الحياة حتى تؤتي ثمارَها.

وإنَّ في التخفيف الذي جاء في فرض الصلاةِ من خمسين إلى خمس، وفي أحكامها عند المرض والسفر، وفي تيسير شروطها من حيث الطهارةُ واللُّبسُ والمكانُ؛ **لَمُعِينٌ** للمسلمِ على المداومة عليها، ومرشدٌ له إلى أنَّ العملَ الميسَّر القليل إذا كان موصولاً خيرٌ وأكثرُ بركةً من العمل الكثير إذا كان مقطوعـًا، وقد سئل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأجاب: أيُّ العمل أحبُّ إلى الله؟ قال: «**أَدْوَمُهُ وإن قلَّ**»[1].

(١) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، بابفضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره، حديث رقم ٧٨٢، من حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

الصَّلاة تَوجُّهٌ إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وإلى القبلةِ الواحِدة

١ - التوجه إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

تقتضي أحكامُ فقهِ القبلةِ أن يولي المصلِّي وجهَهُ شطرَ المسجد الحرام: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ...﴾ [البقرة: ١٤٤].

فعليه إذا همَّ بالصلاة ألَّا ينحو بها حيثما اتفقَ، بل يتحرَّى بالسؤال والاسترشاد، أو بالنظر والتأمُّل، جهةَ القبلةِ من موقِفِه فيلتزمها بوجهه وجسده، ويقابلها بباطن كفَّيه عند التكبير، ويومئ إليها بركوعه وسجوده، ويستقبلها ساجداً برؤوس أصابعه وأطراف رجليه، ويجلس مشيراً إليها بكفَّيه وبإبهام رجله اليمنى، ويلتزم هذا التوجُّهَ الدقيقَ الذي تُسَخَّرُ له الأعضاءُ والأطراف طوالَ الصلاة، فلا ينحرف عنه بجسده ولا يلتفتُ بوجهِهِ ولا يزوغ[1] ببصره.

والقبلة المسجدُ الحرامُ الذي أَسَّسَ أركانَه إبراهيمُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وطهَّرَه للعبادة؛ هو أوَّلُ بيتٍ مباركٍ وُضِعَ للناس مركزاً لوجهة

(١) صوابه: يزيغ.

عبّاد الله، وعَلَمـاً في الأرض يتيمَّمُه مَن يريد أن يجعلَ غايته اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهدفـاً واقعيـاً ينحو نحوه قاصدُ وجه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

والتزام القبلةِ بهذا المعنى إنما هو تمثيلٌ ظاهرٌ للتوجه إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولا يتمُّ معنى الانتصاب بالجسد تجاه القبلة إذا لم يكن المصلِّي بذهنه متوجهـاً إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يتمثَّل نفسه واقفـاً بين يديه، مسلمـاً نفسه إليه، لا يلتفت بجارحته كما لا يلتفت بوعيه عن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وفي بعض صيغ دعـاءِ الاستفتاح وهو أوَّل ذكرٍ يصاحب استقبالَ القبلة بعد التكبير -ما يُعَبِّر عن توجيه الأعضاءِ إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بلا انحرافٍ إلى جهةٍ أخرى، وعن إهداء العمل والعبادة إلـى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بلا انـصـرافٍ إلـى شريك آخر: **«وجَّهتُ وجهي للذي فطر السمواتِ والأرضَ حنيفـاً وما أنا من المشركين، إنَّ صلاتي ونُسُكِي ومحيايَ ومماتي لله ربِّ العالمين، لا شريكَ له وبذلك أُمِرتُ وأنا أولُ المسلمين..»**[1].

(١) رواه أبـو داوود في سـننه، كتابأبـواب تفريـع اسـتفتاح الصـلاة، بـاب مـا يسـتفتح بـه الصـلاة مـن الدعـاء، حديـث رقـم ٧٦٠، مـن حديـث علـي بـن أبـي طالـب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وحكـم عليـه بالصحـة انظـر سـنن أبـي داوود، تحقيـق: محمـد محيـي الديـن عبـد الحميـد ، المكتبـة العصريـة، صيـدا - بيـروت، ج١، ص ١١٥ .

فالذي يلتفتُ في الصلاة إنَّما يُشِيحُ بوجهه عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يجذبه عن ربِّه دعاءُ الشيطان كما رويَ عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: سألتُ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الالتفاتِ في الصلاة فقال: «**هو اختلاسٌ يختلسه الشيطانُ من صلاة العَبدِ**»(١).

وإذا كانت الصلاة مناجاةً لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أغنى عن العبدِ من العبد إليه: «**لا يزالُ الله عَزَّوَجَلَّ مُقبِلاً على العبدِ وهو في صلاتِه ما لم يَلتَفِتْ، فإذا التَفَتَ انصَرَفَ عنه**»(٢).

وإنما شُرِعَت الصلاةُ لذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالذي يُقِيمُ وجهه صَوبَ القبلةِ في الشكلِ الظاهر ولكنَّه يشرد عنها بِذِهنِهِ ويطوف بخاطره طارقًا كلَّ هموم حياته؛ فإنَّه في حُكمِ المنصرفِ عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنَّه غافلٌ لا يحضر ذهنه بحضور الجسد، وما طَلَبَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من العبدِ الصلاةَ إلا ليستقبله بذاكرته ووعيه الحاضر: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾[طه: ١٤].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب الالتفات في الصلاة، حديث ٧٥١، من حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) رواه أبو داوود في سننه، باب تفريع أبواب الركوع والسجود، باب الالتفات في الصلاة، حديث رقم ٩٠٩، من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحكم عليه بالضعف، انظر سنن أبي داوود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ج١، ص ٢٣٩.

٢- استقامةُ الاتجاهِ على صراط الإسلام:

القبلة التي يتحرَّاها المصلِّي ويتوخَّاها بكلِّ جسمه وبكلِّ وَعيِهِ وخاطره خمسَ مرَّاتٍ في اليوم وأكثر؛ رمزٌ لغايةٍ يتَّخذُها المسلِم، وصراطٌ مستقيمٌ إليها يسلكه من حيث يقوم.

والصلاة عبادةٌ تتعاقب على المسلِمِ في يومه فتُحِيلُ حياتَه عبادةً، وتُذكِّرُه تذكيراً متواليًا بالتوجه إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كلِّ الأعمال، وبالتزام صراطِ العزيز الحميد في نهج الحياة كافَّة، وبتسخير الجسمِ والنفسِ لطاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الكاملة، وبالتجرُّد له تجرُّداً مطلقًا لا إشراك فيه.

وناسَبَ لذلك أن يكونَ أوجبُ دعاءٍ يتكرر في الصلاة هو الذي جاء في ختامِ الفاتحة بعد تقرير إخلاص التوجُّه إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحدَه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٥ - ٧].

وفي تعوُّد المصلِّي أن يتحرَّى القبلة ولا يتَّجه عفواً وأن يلتزمَها بكلِّ جوارحه ومشاعره لا ينحرفُ ولا ينصرف؛ تربيةٌ للمسلم الصحيح أن يكون مشدوداً بحبلٍ متينٍ إلى غايته، وثابتًا على الصراط المستقيم، وأن يتحرَّى الاتجاهاتِ ويتفكَّر

في المناهج فيولِّي وجهَهُ شطرَ الحقِّ، ولا يكون من المغضوب عليهم الذين يستيقنون حقَّ القبلة الصحيحة ولكنَّهم يستكبرون عنها ويبغونها عِوَجاً، ولا الضالين الذين يَتِيهُون بلا هُدىً صُمّاً بُكْماً عُمْياً، كالأنعام بل أضل سبيلاً.

وقد عَدَلَ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن قبلةِ قريش في أوَّل عهده، ووافق توجُّه اليهود نحوَ بيت المقدس؛ نظراً لأنَّ أهل الكتاب أقربُ إلى الهدى من مشركي قريش، ولكنَّه بعد شهورٍ في المدينة كان يُقَلِّبُ وجهَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في السماء راجياً أن يردَّه ربُّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلى قبلةِ إبراهيم الحنيف عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلَّى نحوَ بيت المقدس ستَّةَ عشر أو سبعةَ عشر شهراً، وكان رسول الله يحبُّ أن يُوَجَّهَ إلى الكعبة، فأنزل الله: {قد نرى تقلُّبَ وجهكَ في السماء...} فتوجَّه نحو الكعبة**»[1].

فإلتزامُ قبلةِ الصلاةِ ليس منحىً شكليّاً لجسدِ المصلِّي وحسب، ولكنَّه أيضاً توجهٌ إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بذهنه في كلِّ وقت، وهو بأثره في النفس اعتصامٌ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى غايةً وبالإسلام ديناً وصراطاً.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب التوجه نحو القبلة حيث كان، حديث ٣٩٩، من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولذلك كان استقبالُ القبلةِ دليلاً وشعاراً لاتجاه المسلِم الفكريّ والعمليّ – أو الديني بمجمل العبارة –، وسُمِّيَ لذلك أصحابُ هذه الملَّة الذين يدينون دينَ الإسلام وينهجون طريقَه «أهلَ القبلة»: «**مَنْ صلَّى صلاتنا واستقبلَ قبلتَنا وأكلَ ذبيحتنا فذلك المسلِمُ الذي له ذِمَّـةُ الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ **وذِمَّـةُ رسوله، فلا تخفروا الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ **في ذمَّته**»[1]. فبالقبلة خاصَّةً يتأكَّد ما قدَّمنا في شأن الصلاة عامَّةً من أنَّها سمةٌ مميِّزةٌ لذوي الاتجاه الديني الصحيح يدخلون بها في عداد المسلمين وأمانهم.

وفي القرآن ارتبط حديثُ قبلةِ الصلاة بحديثِ ملَّة الدين ارتباطاً وثيقاً ممَّا يؤكِّد التوافقَ والتكاملَ بين استقبال قبلة الصلاة وانتهاج الإسلام طريقاً إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ففي صدر سورة البقرة وَرَدَ ذكرٌ طويلٌ لليهود ولصنيعهم مع الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، وفي ذلك القصص عبرةٌ للمسلمين ألَّا يكونوا أمثالهم، وأن يخالفوا غُلُوَّهم في سؤال رسولهم موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من قبل، ويجتنبوا اصطلاحاتهم في مخاطبة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فما كانوا يُضمِرُون للمسلمين إلَّا العداء والحسد، بل كانوا يَودُّون لو استوى معهم المؤمنون على الكفر.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب فضل استقبال القبلة، حديث ٣٩١، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ثمَّ يستطرد القرآنُ في مقالات اليهود والنصارى ودعواهُم أنَّ الجنَّةَ حكرٌ لهم وإنما هي حقّاً لمن أسلمَ وجهه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ واستقبل عن ملتهم إلى ملَّةِ الإسلام: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وذكر اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في تلك الآيات فعلَ النصارى بالمسجد الأقصى أُولى القبلتين؛ إذ مَنَعُوا فيه حريَّةَ الدين لغيرهم بَغْيًا وعصبيَّةً، وعقَّبَ بأنَّه هو تعالى مالكُ الآفاق جميعًا يولي المصلِّين حيثما شاء وثَمَّ يجدون وجهَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ[1].

ثمَّ ذَكَرَ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الذي استنَّ الإسلامَ الحنيفَ - فبدَّلَه مَنْ بعدَه أولئك - والذي رفع أركانَ البيتِ الحرام بمكَّة وطهَّرَه حُرّاً لكلِّ طائفٍ وعاكفٍ ومُصَلٍّ من أهل الإسلام.

ثم زكَّى الله تعالى في ذِكْـرِهِ مِلَّةَ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وسنَّتَه القائمة على التوحيد الخالصِ والتي بقيت وصيَّةً في ذريَّتِه. وَمَضَتْ الآياتُ توصي الرسولَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمؤمنينَ باتِّباع تلكَ الملة شرعةً ومنهاجًا، وبالإضراب عن الاتجاهاتِ التي ابتدعتها أهواءُ اليهود والنصارى والتي يدعون إليها المسلمين

(١) الآيات ١١٤ - ١١٥ من سورة البقرة.

ويتنازعونهم بها: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٣٥ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣٧ صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾[البقرة: ١٣٥ - ١٣٨].

فمِلَّةُ الإسلام وجهَةُ إبراهيمَ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ هي المرجعُ الذي تُرَدُّ إليه وتقاسُ صحَّةُ الاتجاه ولون الإسلام هو صبغة الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ وما أحسن منه من بين الألوان العقدية والمذهبيّة.

وهكذا حَسَمَ النزاعَ في الملَّة والوجهة والمذهبِ فتَلَتْهُ قصَّةُ النزاع على قبلة الصلاة، وجديرٌ بمن اختار إبراهيمَ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أن يختارَ كذلك قبلتَه وإن شوَّش عليه المنازعون: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَا﴾[البقرة: ١٤٢].

وجديرٌ بمن كان مذهبُه قياسَ المذاهب، وصبغتُه أحسن الأصباغ، ومن كان بذلك وَسَطًا شهيداً على الناس[1] أن

(١) الآية ١٤٣ من سورة البقرة.

يستقلَّ عن أهل المذاهب الباطلة والأصباغ الزائفة، وأن يتحرَّى لصلاته قبلةً غيرَ قبلتهم، وما عسى تلك أن تكونَ إلَّا نحو البيت المطهَّر الذي بوَّأَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لإبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مكانَه من آفاقٍ بعيدةٍ مثلما هداه إلى الملَّة الحنيفيَّة والدِّين القيِّم بعد بحثٍ واسعٍ في ملكوت السموات والأرض: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ [البقرة: ١٤٤].

أمَّا أهلُ الكتاب فإنَّما نزاعهم في ذلك عن جحودٍ، ولا سبيل إلى إقناعهم، فليستقلَّ المسلمون عن أهوائهم وليمضِ كلُّ أحدٍ في اتجاهه فإنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جامعهم يومًا ليتحملوا المغبَّةَ والجزاءَ: ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[البقرة: ١٤٨].

ثم تمضي آيات البقرة فتُثَبِّتُ المسلمين على قبلتهم واتجاههم الرشيد لا يخشون نزاعَ الظالمين من أهل الكتاب، وليذكروا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ويشكروه ويتقووا على مكائدِهم بالصبر والصلاة، ريثما يأتي أمرُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، إذ يتصاعد النزاعُ فيصبح قتالاً ويكون الابتلاء والشهادة في سبيل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقبل استئناف القولِ في جحود أهل الكتاب وكتمانهم للبيِّنات تعترض آيةٌ تناسب حديثَ البيت الحرام الذي بناه إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قِبلةً للصلاة ومركزاً للحجاج والعمَّار، فتذكر إتمامَ الحجِّ والاعتماد[1] عند ذلك البيت بشعيرةِ السعيِ بين الصفا والمروة.

ويسوقنا هذا إلى ما في الصلاة من شمولٍ لمعانٍ من عباداتٍ أخرى، وقد ذكرنا من قبلُ أنَّها تشترك مع الزكاة من حيث إنها صرفٌ لجزءٍ من وقت الإنسان وجهدِه في سبيل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ووقتُ الإنسان وجهدُه هما رأس ماله المنتج، وهي أيضاً تشترك مع الحجِّ ففيه التوجُّه إلى الكعبة واتخاذُها محوراً يطوف حوله المطوفون، يجددون بمناسكه ذكرى إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ويحيون سنتَه، وفي الصلاة كذلك توجُّهٌ إلى الكعبة يقوم نحوها المصلُّون من بلادهم، فهم حولها من بعيد متفرقون على محيط الأرض ولكنَّهم مشدودون -كلٌّ من قطرِه - إلى محورٍ واحدٍ هو بيت الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والتوجه الدقيقُ إلى القبلة يؤدِّي بالمسلم إلى أن يتوخَّى العدلَ فلا يحيدَ ولا يميلَ ويلتزم القسطَ فلا يُخسِرُ الميزانَ في شيءٍ من علاقاته الاجتماعية.

ورغم دوافعِ الهوى التي تحيط بالإنسان وميل العواطف التي تتنازعه؛ فإنَّ الصلاة تعلِّم المسلمَ الاستقامةَ في استقبال

(١) لعل الصواب: الاعتمار.

بيت الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، والتجرُّدَ في التوجه إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فتربيِّه بذلك على الاستقامة في أحكامه ومواقفِهِ جميعـًا، وأن يكونَ مُنصِفـًا لا يظلم ولا يميل، وشاهداً لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قائمـًا بالقسطاس، ومـن ثَـمَّ اتَّصلَتْ معاني القسطِ بمعاني القبلة والتجرُّدِ والإخلاص: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾[الأعراف: ٢٩].

٣- توحيد أهل القبلة

تترتَّب بعضُ الآثار العمليَّة الهامَّة على التزام القبلةِ وما يقترن به من انتهاج الملَّة الحنيفة بغير انحراف، وسلوك صراطِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ المستقيم بغير إشراك؛ ففي ذلك صَبٌّ لجهود الفردِ والأمَّة كلِّها في وجهةٍ واحدةٍ، الأمرُ الذي يتَّصلُ بمعاني المثابرة والثبات التي ذكرنا قبلاً أنَّ الصلاةَ تنمِّيها في النفس بتواترها ودوافعها، فالتزام القبلةِ المذهبيَّة الواحدة تسلكُ أعمالَ المرء كلَّها وجهودَ حياته أجمع في اتجاهٍ واحدٍ، وتجعل مساعيه كلَّها في طريقٍ واحدٍ يتقدَّم فيه شوطـًا بعد شوطٍ فيبلغ بإنجازاته أبعدَ الغايات، لا سيما إذا تعلَّم من الصلاة أيضـًا اطرادَ العمل ووصلَه بلا انقطاع.

والذين تتفرَّق جهودُهم بدداً، وتضيع أشتاتـًا، ولا يبلغون مقصداً أبـداً؛ هم الضالون الذين يسيرون في الدنيا خبطَ

العشواء، ينقلبون كلَّ حينٍ من اتجاهٍ وطريقٍ إلى اتجاهٍ وطريقٍ، فلا يقطعون في هذا ولا ذاك شوطًا بعيداً، وتتنازعهم الأهواءُ المختلفة التي تتغير مع ظروف الزمن وظروفِ الإنسان فتمحَقُ مَسْعاهُم في الحياة.

وهذا هو شأنُ المذاهب الوضعيَّةِ جميعًا؛ لأنَّها جزئيّةُ المضمونِ تترادف على الفردِ الواحدِ ويتعلَّق كلُّ واحدٍ منها بمجالٍ من مجالات حياته، فتتركه حائراً مضطربَ الدوافعِ يعمل في حياته الخاصَّة بنهجٍ يباين ما ينهج في علاقاته العامة، ويتخذ لاقتصادِه موازينَ تخالِفُ ما يَزِنُ به سياسةَ حكمه، وهكذا تضطرب قِيَمُه وتتناسخ فيتمزَّق قَلِقًا وشَلَلاً.

أو تتعاقبُ عليه المذاهبُ فيُخلِصُ لبعضها حينًا من الدهر، ثم تهبُّ رياحُ التغيير لعصرٍ آخرَ فينحرف معها فتردُّه على عَقِبه، أو يمثل به إلى منحىً آخرَ ويذهب ماضي جهودهِ أدراجَ الرياح، وهكذا لا يجد المرءُ مع تعارض الأهواءِ الظرفيَّة وتقلبها استقرارَ الذهن ولا طمأنينةَ النفسِ ولا يحقِّقُ منشودَه في الحياة.

وليس سواءً مَن يخبط العشواءَ ومن يستبين طريقَه رشداً: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢].

والـذي يعوق مسارَ ابن آدم على هذا الصراط المستقيم ويصرفه عن قبلته الواحدة فيتجاذَبُه ويبدِّدُ مسعاه إنَّما هي أهواءٌ يزيِّنها إبليس: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴾[الأعراف: ١٦ - ١٧].

وإذا كان من أثرِ القبلةِ الواحدةِ أن تجمعَ للإنسان شتاتَ نفسِه وتنظِّمَ له أشواطَ عمله في مسلكٍ واحدٍ؛ فإنَّ أثرَها الأكبرَ من هذا الوجهِ هو أنها توحِّدُ أهلَ القبلةِ جميعـًا وتَصهُرُهم في أمةٍ واحدةٍ، وما سمِّيَت أمةً إلَّا لأنها تتيمَّمُ جهةً واحدةً.

فالمسلمون في مشارق الأرضِ ومغاربها، وذات الشمال فيها وذات الجنوب؛ ينحون بأجسامهم ومشاعرهم تجاهَ مركزٍ واحدٍ يستقبلونه بتمام التجرُّد مرّاتٍ في كلِّ يومٍ ريثما يجتمعون بشخوصهم في رِحَابِهِ استجابةً لمؤذِّنِ الحجِّ مرَّةً في العمر أو العام.

وهذه الوجهة المشتركةُ التي تذكرهم بها الصلاةُ هي من سرِّ رابطتهم الوثيقة، وممَّا يعصمهم من أن يتفرقوا حسبَ الأهواءِ فيصبحوا نهبـًا لتيارات المذاهبِ الوضعيّةِ ينزع كلُّ فريقٍ منهم إلى اتجاهٍ:

﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ

ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾[الروم: ٣٠ - ٣٢].

ومن حيث يقوم كلُّ مسلمٍ نحوَ القبلة يمتدُّ الصراطُ المستقيم؛ فإن لَزِمَهُ المسلمون جميعاً جَمَعَهُم موكبٌ واحدٌ سائرٌ إلى الله، وإن أغوتهم دعواتُ الباطل تفرَّقُوا عن الشِّعَاب فتبدَّدَ شملُهم وضلَّت بهم السُّبُلُ عن سبيل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[الأنعام: ١٥٣].

وفي صلاة الجماعة معانٍ أخرى تؤكِّد وحدةَ أهلِ القبلةِ، ونتعرَّض لها في موضعها إن شاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وتَولِيَةُ الوجهِ في الصلاة إلى بقعةٍ بعينها، والتوجُّهُ بالذهن إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والتجرُّد له في ذلك عن كلِّ مَيلٍ أو التفاتٍ، ومرجعُ المسلمين جميعاً إلى مركزٍ واحدٍ؛ كلُّ ذلك يتَّصل بمعنى التوحيد وإهداء العبادة والعملِ كلِّه لوجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لا يعدل العابدُ عنه إلى شريكٍ، ولا يجد من دونه مُلتَحَداً.

وقد تقدمت آيات الروم تقابِلُ بين أصحابِ الدين القيِّم وبين المشركين وما هم فيه من عزَّةٍ وشقاقٍ، كما تقدمت آيات

الفاتحة يستهدي بها المصلِّي الصراطَ المستقيمَ عَقِبَ إعلان التوحيد الخالص.

والصلاة بذلك وبكثيرٍ من أحكامها الأخرى تهدي إلى التجرُّد والإخلاص لربِّ العالمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وذلك ما نبسطُ القولَ فيه بعد.

الصَّلاة تمامُ التجرُّدِ والإخلاصِ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ

١ - التجرد لمناجاة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ

ينبغي للمصلِّي وهو قائمٌ بين يديّ ربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يتوجَّه إليه في تجرُّدٍ كامل، فلا يأتي عملاً ولا قولاً إلّا ما كان من شأن الصلاة، وهذا الحكم يكمل ما سبقَ من واجبِ استقبالِ القبلة، فهناك التزامُ القبلة واستشعارُ التوجُّه إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهنا انصرافٌ عن دُنيا الناسِ بأقوالها وأفعالها وإقبالٌ على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بمنجىً عن العالمين.

ولم يكتمل شرعُ الصلاة حتى حرِّرَت من كلِّ شواغل العملِ والكلام وصارت قنوتًا خالصًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فقد روى زيدُ بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنْ كنَّا لنتكلَّمُ في الصلاة على عهد النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يكلِّمُ أحدنا صاحبَه بحاجته حتى نزلت: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾، فأُمِرْنا بالسكوت»[1].

وتوقف الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ردِّ السلام أثناءَ الصلاة وقال: «**إنَّ في الصلاةِ لشُغلاً**»[2].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب أبواب العمل في الصلاة، باب ما ينهى عنه من الكلام في الصلاة، حديث ١٢٠٠، من حديث زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، حديث رقم ٥٣٩.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب أبواب العمل في الصلاة، باب لا يرد =

وفي فقه الصلاةِ تفصيلٌ لما يُبطِلُ الصلاةَ من كثيرِ الكلام والعَبَثِ بالجوارح، ولما هو عفوٌ من اليسير، ولما هو جائزٌ لصلته بأمر الصلاة.

والإمساكُ عن شواغل الحياة وعلاقاتها بضبط اللسانِ والجوارح إلَّا عن ذكر الصلاة وأفعالها؛ إنما هو تعبيرٌ عمليٌّ عن التجرُّد النفسيِّ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والانشغال بمناجاته عن كلِّ خاطرٍ وهَمٍّ، وتحقيقاً لهذا التفرغِ المطلوب كان على المصلِّي أن ينفي عنه كلَّ مرئيٍّ أو مسموعٍ أو محسوسٍ من شأنه أن يختطف انتباهَه أو اهتمامَه ويصرفَه عمَّا هو فيه فيسلمه إلى الغفلة عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والإقبال على ما سواه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فَمِنْ ذلك كلُّ محسوسٍ يحرِّكُ حاجات الجسد: «**إذا حَضَرَ العَشَاءُ وأقيمت الصلاةُ فابدؤوا بالعَشَاءِ**»[1]، «**لا صلاةَ بحضرةِ الطعام، ولا هو يُدافِعُه الأخبثان**»[2].

= السّلام في الصلاة، حديث ١٢١٦، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب إذا حضر الطعام وأقيمت الصلاة، حديث ٦٧١، من حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ورواه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب كراهة الصلاة بحضرة الطعام الذي يريد أكله في الحال وكراهة الصلاة مع مدافعة الأخبثين، حديث رقم ٥٥٧، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب =

ومنه المشاهد التي تُلهِي المصلِّيَ؛ من ثوبٍ أو فراشٍ مُلفِتٍ: صلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في خميصةٍ لها أعلامٌ، وقال: «**شَغَلَتْنِي أعلامُ هذه فاذهبوا بها إلى أبي جَهم، وأْتُوني بِأَنْبِجانِيَّةِ أبي جَهم**»[1].

كان قِرَامٌ لعائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا سَتَرت به جانبَ بيتها، فقال لها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أميطي عنا قِرَامَكِ هذا؛ فإنَّه لا تزال تصاويرُه تَعرِض لي في صلاتي**»[2].

ويندرج في هذا المعنى السترةُ يجعلها المصلِّي تلقاءَ وجهه، وتأثيمُ المرورِ بين يديه، وينبغي كذلك صَرفُ الشواغلِ النفسيّة: «**إنِّي لأدخل في الصلاة أُرِيد إطالتها فَأسمعُ بكاءَ الصبيِّ فأخفِّفُ من شدَّةِ وجد أمِّه به**»[3].

= كراهة الصلاة بحضرة الطعام الذي يريد أكله في الحال وكراهة الصلاة مع مدافعة الأخبثين، حديث رقم ٥٦٠، من حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(١) رواه البخاري في صحيحه،كتاب الآذان، باب الالتفات في الصلاة، حديث ٧٥٢، من حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) رواه البخاري في صحيحه،كتاب الصلاة، باب إن صلى في ثوب مصلب أو تصاوير، هل تفسد صلاته؟ وما ينهى عن ذلك؟، حديث ٣٧٤، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) رواه البخاري في صحيحه،كتاب الأذان، باب من أخف الصلاة عند =

وإذا جرَّد المصلِّي محيطَه من كلِّ محسوسٍ قد يفتنُه في صلاته؛ فإنَّ عليه كذلك أن يفرغَ همَّه من شواغل الدنيا، كما قال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مِنْ فِقهِ المرءِ إقبالُهُ على حاجته حتَّى يُقبِلَ على صلاتِه وقلبُه فارغٌ»(١).

وعلى المصلِّي من أجل ذلك أن يتحيَّن بصلاته ظرفًا يكون بحالته الذهنيَّة أصفى وأكثر طمأنينة؛ لعلَّه يكون أشدَّ حضوراً بذهنه وانتباهًا إلى شأن مناجاةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأكثر قنوتًا وتجرّداً: «**إذا نَعَسَ أحدُكم وهو يصلِّي فليرقُدْ حتَّى يذهبَ عنه النوم، فإنَّ أحدكم إذا صلَّى وهو ناعسٌ لا يدري لعلَّه يستغفرُ فيسبُّ نفسَه**»(٢).

ومن هديِ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه دخل المسجدَ فإذا حبلٌ ممدودٌ بين الساريتين، فقال: «**ما هذا الحبل؟**» قالوا: هذا حبلٌ

= بكاء الصبي، حديث ٧٠٩، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب إذا حضر الطعام وأقيمت الصلاة، مقوله أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ج١، ١٣٥.

(٢) رواه البخاري في صحيحه،كتاب الوضوء، باب الوضوء من النوم، ومن لم ير من النعسة والنعستين، أو الخفقة وضوءا، حديث ٢١٢، من حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

لزينب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فإذا فَتَرَتْ تعلَّقت به، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لا، حُلُّوه ليصلِّ أحدُكم نشاطَه فإذا فَتَرَ فليرقد»**[1].

وتحقيقاً لهذا المعنى كذلك يشترط الوعيُ عند أداء الصلاة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾[النساء: ٤٣].

ويتأكَّدُ هذا التوجُّه والتجرُّد الذي يُعبِّر عنه المصلِّي بسكونه ووَقارِهِ ويستشعِرُه بحضور ذهنه ويتوخَّى له الظروفَ والأحوالَ؛ يتأكَّدُ بجانبٍ إيجابيٍّ من أفعال الصلاة وأذكارها:

فمِنَ الأفعال: نصبُ الجسم والأطراف إلى القبلة كما تقدَّم.

ومن الأذكار: فاتحةُ الكتاب يناجي بها العبدُ ربَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيتجاوب الربُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: «قَسَمتُ الصلاةَ بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: الحمد لله ربِّ العالمين. قال الله تعالى: حمدني عبدي. وإذا قال: الرحمن الرحيم. قال الله تعالى: أثنى عليَّ عبدي. وإذا قال مالك يوم الدين. قال: مجَّدَني عبدي. فإذا قال: إيَّاك نعبد وإياك نستعين. قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل»[2].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه،كتاب التهجد، باب ما يكره من التشديد في العبادة، حديث ١١٥٠، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، =

ثمَّ سائر القرآن يقرؤه المصلِّي فيطرق فيه معاني التجرُّد والإخلاص كلُّ ذلك ما لم يكن الذِّكرُ والقرآنُ مجرَّدَ أصواتٍ تجري على اللسان كالهذيان، والذِّهنُ غائبٌ شارِدٌ، بل ما لم يكتف القارئُ بالمرور على سطح المعاني بفهمه وإنَّما تعمَّقَ فيها تأمُّلاً وتدبُّراً وازداد بها إيمانـًا بوحدانية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وقنوتـًا له عما سواه.

وقد يجتهد المصلِّي فينفي عن محيطِهِ كلَّ محسوسٍ ومشهودٍ ويعمل فكرَه في معاني الذِّكر، ثمَّ لا يملكُ إلَّا أن ينفلتَ من إطارِ نجوى ربِّه فترد عليه الخواطرُ أشتاتـًا من شؤون الحياة، ويجول فكرُه في هموم يومِه ويسرح بعيداً عن استشعار حضرة الله، وإنما مردُّ ذلك إلى شدَّة التعلُّق بأغراض الدنيا وإلحاحِ الحاجات والأوطار التي تستولي على الفؤاد، فإذا خلا المرءُ عن علاقات الناس، وحاول الإقبالَ على ربِّه انجذبت خواطرُه إلى دنياه فلبثت في حبائلها التي تتشعَّب ولا تكاد تنتهي، وبذلك يسرق الشيطان من صلاته أو يستغرقها جميعـًا.

وما أحسن فقهَ أبي حامدٍ الغزاليّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معنى التجرُّد لله في الصلاة؛ إذ أفاضَ في اشتراط حضورِ القلب فخلصَ إلى «أنَّ

= وإنه إذا لم يحسن الفاتحة، ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها، حديث رقم ٣٩٥، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

حضورَ القلبِ هو روحُ الصلاة، وأنَّ أقلَّ ما يبقى به رمقُ الروح الحضورُ عند التكبير، فالنقصان منه هلاكٌ، وبقدرِ الزيادة عليه تنبسط الروحُ في أجزاء الصلاة، وكم من حَيٍّ لا حراك به، قريبٍ من ميت؛ فصلاة الغافل في جميعها إلَّا عند التكبير كمثل حيٍّ لا حراكَ به، نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ العون».

ثم استأنف الغزاليُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديثَه يقترح دواءً لدفع ما يُلهِي من الخواطر الواردة بأسباب خارجيَّة وباطنيَّة، فيقول: «أما الخارج فما يَقرَعُ السمعَ أو يظهرُ للبصرِ فإنَّ ذلك قد يختطف الهمَّ حتى يتتبَّعه ويتصرف فيه، ثم تنجرُّ منه الفكرةُ إلى غيره ويتسلسلُ ويكون الإبصارُ سببًا للابتكار، ثم تصير بعضُ تلك الأفكارِ سببًا للبعض، ومَنْ قَوِيَتْ نيَّتُه وعَلَتْ همَّتُه لم يُلهِهِ ما جرى على حواسّه، ولكنَّ الضعيفَ لا بدَّ وأن يتفرق به فكرُه. وعلاجه: قطعُ هذه الأسباب، بأن يغضَّ بصرَه ويصلِّيَ في بيتٍ مظلمٍ، وألّا يتركَ بين يديه ما يشغل حِسَّه.

وأمَّا الأسباب الباطنيَّة فهي أشدُّ، فإنَّ مَنْ تشعَّبَتْ به الهمومُ في أوديةِ الدنيا لا ينحصرُ فكرُه في فنٍّ واحدٍ، بل لا يزالُ يطير من جانبٍ إلى جانبٍ، وغضُّ البصرِ لا يغنيه، فإنَّ ما وقعَ في القلبِ من قبل كافٍ للشغل؛ فهذا طريقُه: أن يردَّ النفسَ قهراً

إلى فهم ما يقرؤه في الصلاة ويشغلها به عن غيره، ويعينه لذلك أن يستعدَّ له قبل التحريم، بأن يجدِّدَ على نفسه ذكرَ الآخرةِ وموقفَ المناجاة وخَطَرَ المقام بين يدي الله سبحانه، وهو المطَّلِع، ويفرِّغُ قلبَه قبل التحريمِ بالصلاة عمّا يهمُّه فلا يترك لنفسه شغلاً يلتفت إليه خاطره.

فهذا طريقُ تسكين الأفكار، فإن كان لا يَسكُن هوائجُ أفكاره بهذا الدواء المسكِّن؛ فلا ينجيه إلا المُسهِلُ الذي يقمع مادَّةَ الداء من أعماق العروق، وهو أن ينظر في الأمور الصارفة الشاغلة عن إحضار القلب، ولا شكَّ أنها تعود إلى مهماته، وإنما صارت مهمات لشهواتِه، فيعاقب نفسَه بالنزوع عن تلك الشهوات وقطعِ تلك العلائق. وهذا هو الدواء القامع لمادة العلَّة، ولا يغني غيره.

فأما الشهوات القويّة المرهقة فلا ينفع فيها التسكينُ بل لا تزال تجاذبها وتجاذبكَ ثم تغلبُكَ وتنقضي جميعُ صلاتك في شغلِ المجاذبة، وهذه الشهوات كثيرةٌ وقلَّما يخلو العبد عنها، ويجمعها أصلٌ واحدٌ، وهو حبُّ الدنيا، وكذلك رأسُ كلِّ خطيئة، وأساسُ كلِّ نقصان، ومنبع كلِّ فساد، ومَن انطوى باطنُه على حبِّ الدنيا حتى مالَ إلى شيءٍ منها لا ليتزوَّد منها ولا

ليستعين بها على الآخرة؛ فلا يطمعن في أن تصفوَ له لذَّة المناجاة في الصلاة، فإن من فرح بالدنيا لا يفرح بالله سبحانه وبمناجاته، وهمّةُ الرجلِ مع قرَّة عينه، فإن كانت قرَّةُ عينه في الدنيا انصرف لا محالة إليها همُّهُ، ولكن مع هذا فلا ينبغي أن يتركَ المجاهدةَ ورَدَّ القلبِ إلى الصلاة وتقليلَ الأسباب الشاغلة، فهذا هو الدواء المرُّ، ولمرارتِهِ استشبعته الطباعُ وبقيت العلَّةُ مُزمِنَةً وصار الداءُ عضالاً، حتى أنَّ الأكابر اجتهدوا أن يصلُّوا ركعتين لا يحدثون أنفسَهم فيها بأمر الدنيا فعجزوا عن ذلك، فإذَنْ لا مطمعَ فيه لأمثالنا، وليته سَلِمَ لنا من الصلاة شَطرُها أو ثلثها من الوسواس؛ لنكون ممَّن خَلَطَ عملاً صالحًا وآخر سيئًا»[1].

وبمعاني القنوتِ لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ والتجرُّد لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، والسكوت والانصراف عن أمر الدنيا؛ تقترنُ الصلاةُ بالصوم الذي يكفُّ فيه المرءُ عن الطعام وفُحشِ الكلام، وينصرف عن الشهوات ويستشعر هَجرَ الدنيا والإقبالَ على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فيزداد تقوى وإخلاصًا؛ ولكنَّ الصومَ لا يحدث آثارَه بمعاناة

(١) إحياء علوم الدين، كتاب «أسرار الصلاة». الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد ت (٥٠٥هـ)، إحياء علوم الدين، دار المعرفة - بيروت، ج١، ص ١٦٥.

الجوع والعطش دون إتمامه في الشعور، ودون حضورِ الذهنِ ووعيِ الصائمِ بما يأتي ويدع، وإلَّا لم يكن له من صيامه إلا الحرمان، وكذلك «**ليس للمرءِ من صلاتِهِ إلَّا ما عَقَلَ منها**» كما جاء في الأثر: «**ورُبَّ قائمٍ حظُّه من صلاتِهِ السهر**»[1].

والذي يُقبِلُ على صلاته بجدٍّ يؤديها حقَّ الأداء بجارحته وشعورِه، ويتجرَّد لها من كلِّ شاغلٍ وخاطر؛ فقد أصابَ عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أجراً كبيراً: «**ما من مسلِمٍ يتوضَّأ فيحسن وضوئه ثمَّ يقوم فيصلِّي ركعتين يُقبِلُ عليهما بقَلبِه وبوجهه؛ إلَّا وَجَبَتْ له الجنَّة**»[2].

---

(١) رواه أحمد في المسند، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حديث رقم ٨٨٥٦، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إسناده جيد، عمرو بن أبي عمرو -وهو المدني مولى المطلب- وإن روى له الشيخان، فيه كلام يحطه عن رتبة الصحيح، وباقي رجال الإسناد ثقات رجال الشيخين غير سليمان -وهو ابن داود الهاشمي- فقد روى له أصحاب السنن، وهو ثقة. إسماعيل: هو ابن جعفر، وأبو سعيد المقبري: اسمه كيسان، وأخرجه أبو يعلى (٦٥٥١)، وابن خزيمة (١٩٩٧)، والحاكم ١/ ٤٣١، والقضاعي في "مسند الشهاب" (١٤٢٦)، والبغوي (٧٤٧) من طرق عن إسماعيل بن جعفر، بهذا الإسناد.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب الذكر المستحب عقب الوضوء، حديث رقم ٢٣٤، من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثمَّ مَنْ يتعهَّدُ الصلاةَ بهذا القنوت الظاهر والباطن فإنَّها تُحدِثُ آثارها في سائر أعماله، وفي منهجِ حياتِه بما تزرع في نفسه من معاني التوحيد والإخلاص.

٢- الإخلاص لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالعبادة والولاء:

توحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أو إِفْرادُه بالتوجُّه والعبادة هو أساسُ دين الإسلام، وجوهر دعوةِ الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ جميعًا، وقاعدة التكليف الشرعي كلِّه، والصلاة المتوالية التي يتمُّ فيها الإخلاص والتجرُّد تربيةٌ للمسلم، تعمِّقُ في وجدانه ذلك التوحيدَ وتنفي عنه الرياءَ والشركَ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾[البينة: ٥].

وفضلاً عمَّا سلفَ من أثر التزام القبلة الواحدةِ وما تقدَّم من أحكام القنوتِ والتفرُّغِ العمليِّ لأمر الصلاة؛ فإنَّ كثيراً من أذكار الصلاة ترسِّخ عند القارئ الواعي عقيدةَ التوحيد وتبسط آثارَها في حياته.

فالتوحيد تحرُّرٌ للمسلم من الذلِّ والخوفِ؛ إذ يعتقد أنَّ النعمةَ كلَّها من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فلا يتذلَّلُ لغيره برجاءٍ ولا بحمدٍ، ويؤمن أن لن يصيبَه إلَّا ما كتب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلا يخشى غيرَه

ولا يعرف غيرَه واهباً للحياة والعافية، وقاسماً للحظوظ والأرزاق، وملهماً للهداية والتوفيق، ليس له شريكٌ ولا مِن دونِه وليٌّ يستحقُّ عبادةً أو خضوعاً، وبذلك يتحرَّرُ المسلِمُ من سلطان الطواغيت، وتنطلق حريَّاتِهِ من رهانها إلى رحاب التوكُّل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويتثبت من الحيرة والارتباك؛ لأنَّ غايتَه واحدةٌ لا يرتاب فيها أبداً، ولا يَلبِسُ إيمانَه بها بظلمٍ.

وتلك معانٍ تتردَّدُ كلُّها في أذكار الصلاة؛ فأذانها يبتدئُ بإقرار الوحدانية وبه ينتهي، وإذا فرغ المتوضِّئُ لها قال: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله»[1].

ودعاءُ القنوت في بعض مأثورِهِ توجُّهٌ خالصٌ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإفرادٌ له بالسعي والعبادة: «**اللهمَّ إنّا نستعينُكَ ونستغفركَ، ولا نَكفُرُك، ونؤمِنُ بك، وَنَخلَعُ مَن يَفجُرُك، اللهمَّ إيَّاك نعبد ولك نُصَلِّي ونسجد، وإليك نسعى ونَحفِد، نرجو رحمتَكَ ونخاف عذابك، إنَّ عذابك الجدَّ بالكافرين مُلحَق**»[2].

---

(١) رواه مسلم، كتاب الطهارة، باب الذكر المستحب عقب الوضوء، حديث رقم ٢٣٤، من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف ت (٦٧٦هـ)، الأذكار، الجفان والجابي - دار ابن حزم للطباعة والنشر، ط١ (١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م)، ص١٣٥ .

ولا تنتهي الصلاة إلَّا بالتشهُّدِ يهدي فيه المصلِّي قبل فراغِه أنواعَ التحيَّات - أو كلمات التوقير والتعظيم - والصلوات؛ أي: العبادات الفعلية. وكلَّ ما طاب وزكى وتباركَ من شعورٍ وقولٍ وعملٍ؛ كلُّ ذلك خالصاً لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ثمَّ يختم بإعلان الشهادةِ يجدِّدُ بها ميثاقَ التوحيد.

وإذا فَرَغَ المصلِّي كان من مأثور الذكر له عَقِبَ الصلاة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كلِّ شيءٍ قدير»، وتنزيه الله وحمده وتكبيره: «سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر» [(١)]. ومنه آية الكرسي [(٢)]،كلها عبارات متراصَّة في تمجيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتوحيده ونفي النقائصِ عن ذاته.

ومن المعاني المتَّصلة بالتوحيد - ممَّا تُعَمِّقُه الصلاة في نفس المسلِم؛ إخلاص الولاء لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والتجرد عن كلِّ العلائق

---

(١) رواه البخاري في صحيحه،كتاب الأذان، باب الذكر بعد الصلاة، حديث رقم ٨٤٤، من حديث معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه النسائي في السنن الكبري، كتاب عمل اليوم والليلة، باب ثواب من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة، حديث رقم ٩٨٤٨، من حديث أبي أمامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي: ثقة ، وقال ابن معين : ثقة مأمون ، وكذا قال محمد بن عثمان عن ابن المديني ، وقال أبو حاتم : لا بأس به .
ينظر: "تهذيب التهذيب" (٩/ ١٧٠) .

من دونه، وتقديم حقِّه على كلِّ حقّ؛ فالسكوت عن شؤون الناس والإقبال على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده يتمُّ في الصلاة على أتمِّ الوجوه؛ فإذا امتدَّ أثرُه في حياة الإنسان بتعهد الصلاة ودوامها؛ كانت عبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وطاعته أَولى عنده من شؤون نفسه وأوطارها، وكان انقياده لأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا لأهوائه وغرائزه وشهواته، وكانت علاقاتُه وحبُّه وبغضُه في الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أشدَّ من ولاءاته وعصبيَّاته الفطرية، وكانت قِيَمُه الدينية هي العليا وتعلقاتُه الأخرويّة هي الغالبة.

ويتزكَّى المصلِّي بما يتعوَّد في الصلاة من قنوتٍ وانصرافٍ عن الدنيا إلى شأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فتتمكَّن في نفسه معاني هَجرِ الدنيا في جنب الله، فلا يقدِّم حاجاتها بين يدي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يشتري متاعَ الدنيا ومعاشها بالباقيات الصالحات، فيستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[طه: ١٣١ - ١٣٢].

وإذا طال عهدُ المرءِ بذكر ربِّه وخاض في الحياة مع الخائضين؛ فإنَّ حاجات دنياه وزينتها وشهواتها تحيط به حتى تقطعه عن ربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وتستغرق كلَّ همِّه وتستأصلُ

كلَّ إيمانه وتُميتُ في نفسِه معاني التسامي فوق أسباب المادّة القريبة، فيصبح ولاؤُه من جنس ولاء الحيوان، وهكذا تسود في المجتمع عصبياتُ اللون والعرق والوطن، ولا يجتمع الناس إلَّا على مصلحةٍ ظرفيَّةٍ أو غرضٍ زائلٍ أو عرضٍ قريب.

فإذا تعاهد المرءُ الصلاة ووالاها طولَ يومه وداوم عليها كلَّ عمره وثَّقت صلتَه بربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وعلَّمته بقنوتها معانيَ الترقي فوقَ ضغوط البيئة المباشرة، ونزَّهت تعلقاتِه من عصبية الحيوان وشهوة الشيطان، فيصير ولاؤه لوجه الله قائماً على الرحابة والوعي، لا على الضيق والعمى، ويكون تعاونه مع الناس ابتغاء مرضاة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عميماً خيره، دائماً أثره بريئاً، من الأنانية والعدوان.

وتثبيتاً لهذه المعاني كان هتاف الصلاة المتكرر هو «الله أكبر» إعلاءً لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على كلِّ غاية تكبر عن الإنسان، وتقويماً للعلاقة به على كلِّ علاقة، وتقترن الشهادة المتكرِّرة بوحدانية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالشهادة بمحمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبداً ورسولاً لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وقدوةً للمسلمين يتوجَّهون إليه بالاتباع والولاء.

ثمَّ يَذكُرُ المصلِّي في الفاتحة صُحبةَ الذين أنعمَ الله عليهم على الصراط المستقيم، ومجانبة المغضوب عليهم والضالين، كما يذكرُ في تشهُّدِه عبادَ الله الصالحين.

وبهذه الأذكارِ ترتسمُ معالمُ علاقات المسلم وولاءاتُه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ولرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وللمؤمنين: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة: ٥٥ - ٥٦].

وما دام الفلاحُ والعزُّ في جنب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وفي صحبة أوليائه؛ فما أخلصَ الدعوة التي جاءت في بعض صيغ القنوت: «**اللهمَّ اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، وتولني فيمن توليت، وبارك لي فيما أعطيت، وقني شرَّ ما قضيت، فإنَّك تقضي ولا يقضى عليك، وإنَّه لا يذلُّ مَن واليت، ولا يعزُّ مَن عاديت، تباركت ربَّنا وتعاليت**»[1].

والإخلاص لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالتوحيد والتجرُّد له بالولاء يُورِثَان المصلِّيَ تعظيمًا وإجلالاً لربِّه ويدعوانه إلى أن يخشع لذكره، ويخضع لأمره، فهو يزداد بصلاته طاعةً صادقةً.

(١) النسائي وأبو داود.

الصَّلاة خشوع وَطاعة صَادقة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والرسُول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

١- خشوع كامل بالقول والفعل والشعور

في الصلاة تفكُّرٌ وتأمُّل وفيها توجُّهٌ إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالقول الطيِّب، ولكنَّها لا تقتصر على التفكر والكلام وإنَّما هي كذلك هيئاتٌ جسديةٌ من قيامٍ وجلوسٍ وحركات من ركوعٍ وسجودٍ وغير ذلك ممَّا يمثل تمجيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والتذلل له مصحوباً بالذكر الموافق.

والخشوع حالةٌ تخضع وتطمئن فيها الجوارح بأعمال الصلاة، ترافقها أذكارٌ صادرة عن ذهنٍ حاضرٍ متدبرٍ، وتواكبها خواطرُ تقوم بالفؤاد منفعلةً بمهابة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وإجلالِهِ، ومشاعرُ متجهةٌ إليه بالقنوت والإخبات.

ولا تتمُّ صلاةٌ بغير خشوع مهما كانت ملتزمةً بالمظهر المسنون أو انضبطت فيها الحركات الآليَّة أو تمَّ كلام اللسان.

ولا يصلُ إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عملٌ يؤدِّيه صاحبُه عفواً بغير أساسٍ من تقوى النفوس: ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ

لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[الحج: ٣٦ - ٣٧].

ولا يصعد إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قرآنٌ يجري على اللسان ولا يمسُّ نفسَ القارئ ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾[الزمر: ٢٣]. كذلك الصلاة لا يفلح إلَّا مَن يُقيمُها عن خشوعٍ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١ - ٢].

والخشوع - كما قدَّمنا في شأن التوجُّه إلى الله في الصلاة - حالةٌ لا تتيسَّر إلا لمن تعهَّدَ نفسَه بالتزكية ورطَّب لسانَه بذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كلِّ حين وألانَ فؤادَه باستشعار هَيبَةِ ربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حتى تفجَّرتْ في نفسه ينابيعُ الإيمان، وعرفَ طمأنينة اليقين فصار يُحسِنُ العبادةَ كأنَّه يرى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾[الحديد: ١٦].

والخشوع تكاملٌ بين معانٍ مختلفة: منها ما قدمنا من أمر القبلة من التوجُّه إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وفي أمرِ القنوت من التجرُّد له عمَّا سواه، ومنها استشعار جلال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وعظمته والتذلل لجنبه والخضوع والاستكانة بين يديه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا بدَّ من استحضار هذا الشعور الشامل لدى كلِّ قولٍ أو عملٍ من إجراءات الصلاة.

فإذا وقف العبدُ للصلاة القائمة وولَّى وجهه شطرَ القبلة وأقبل ظاهراً وباطناً على العبادة التي يهمُّ بها؛ فإنَّ أوَّلَ عمله أن يرفع يديه مُعلِناً إكبار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، واليدان هما أدوات الكسب والبطش يبسطهما المرءُ عادةً بالخير والشرِّ، ويستعين بقوَّتِهِمَا في كلِّ شأنٍ، ولكنَّه إزاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يكفهما إليه إنباءً عن هوانِهِ وقلَّةِ حيلته، وينصبهما إلى منكبيه مطلقة أكفَّهما بعيدتين عن وضعهما الفعَّال؛ آيةً للعجز والاستسلام، وطرحاً لكلِّ مقاومة، وإظهاراً لتمام الانقياد، «واختلفت عبارة العلماء في الحكمة في رفع اليدين؛ فقال الشافعيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فعلتُه إعظاماً لله تعالى واتباعاً لسنَّة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال غيرُه: استكانةٌ واستسلامٌ وانقيادٌ وكانَّ الأسير إذا غُلِبَ مَدَّ يديه علامةً للاستسلام، وقيل: هذه إشارة إلى استعظام ما يدخل فيه،

وقيل: إشارةٌ إلى طرح أمور الدنيا والإقبال بكليته على الصلاة ومناجاة ربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما تضمَّن ذلك قوله «الله أكبر» فيطابق فِعلُه قولَه وقيل إشارة إلى دخولِهِ في الصلاة... والله أعلم»[1].

ويُطرِقُ المصلِّي ببصره ويُطَأطِئُ رأسَه حياءً وتواضعًا: «**ما بالُ أقوامٍ يرفعون أبصارَهم إلى السماء في صلاتهم، لينتهينَّ عن ذلك أو لَتُخطَفَنَّ أبصارُهم**».

ولا يصلي مُختَصِراً[2]؛ تأدُّبًا مع ربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويَقبِضُ يديه أمامه كأنَّهما مُوثَقَتَين بقيدٍ ذليل، وتسكن حركتُه فلا يعبث بأطرافه ولا هندامه، وتقر أنفاسُه ويلزم الطمأنينة والسكينة والوقار؛ اعتباراً لمقامه من ربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: «إذا ثوّبَ للصلاة فلا يَسْعَ إليها أحدُكم، ولكن ليمشِ وعليه السكينة والوقار»[3].

ثمَّ يقرأ المصلِّي قرآنَه خاشعًا يلين جلدُه لوقع الآيات خضوعًا وسمعًا وطاعة، ويهوى إلى الركوع فيخفض بالتذلُّلِ

---

(١) النووي، شرح النووي على مسلم، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط٢ (١٣٩٢هـ)، ج٤، ص٩٦.

(٢) لا يضع يده في خاصرته أثناء الصلاة.

(٣) رواه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة، والنهي عن إتيانها سعيا، حديث رقم ٦٠٢، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قامتَه التي أقامها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ تكريماً للإنسان على الحيوان، ويحني ظهره وكأنَّما تبوء قوةُ متنِه بأعباء الطاعة، ويكبِّرُ اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عن الهويِّ متَّضِعاً، ويعظِّمُه في الركوع مُسبِّحاً بحمده: «**فأمَّا الركوعُ فعظِّمُوا فيه الربَّ**»(١)، ومُعرِباً عن حالته الخاشعة: «**اللهمَّ لك ركعتُ وبك آمنتُ ولك أسلمتُ، خَشَعَ لك سمعي وبصري ومخِّي وعَظمي وعَصَبي**»، «**سُبُّوح قُدُّوس ربُّ الملائكة والروح**»(٢).

ويرفع المصلي رأسَه شاهداً بأنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يسمع مَن حَمِدَه فيكرر الحمد ويزيد في ذلك ما شاء، يستزيد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ رحمةً وفضلاً: «**اللهمَّ ربَّنا ولك الحمد، ملءَ السموات والأرض، وملءَ ما شئتَ من شيءٍ بعد، أهل الثناء والمجد، أحقُّ ما قاله عبد، وكلُّنا لك عبد، لا مانع لما**

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود، حديث رقم ٤٧٩، من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

(٢) رواه أبو داوود في سننه، كتاب أبواب تفريع استفتاح الصلاة، باب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء، حديث رقم ٧٦٠، من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وحكم عليه بالصحة، انظر سنن أبي داوود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، ج١، ص ٢٠١.

أعطيت ولا مُعطِيَ لما مَنَعت، ولا ينفع ذا الجَدِّ منك الجَدُّ» [1].

ثمَّ ينحطُّ للسجود فيضع إلى الأرض مُحَيَّاه ومرآةَ مشاعرِه الذي يحرص عند غيرِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على حفظِ مائِهِ وصَونِ عزَّتِه، فإذا بلغ المرءُ بهامتِهِ العالية غايةَ الانخفاض، وألصقَ جبهته بالتراب؛ فذلك مبلغُ الاستكانة والتذلل للَّذي خلقه وصوَّرَه، وحقَّ للمصلِّي الساجد أن يذكر ربَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ العلي وهو في تلك الحالة الخفيضة «**سبحان ربي الأعلى**»[2]، وأن يناجيه: «**اللهمَّ لك سجدتُ وبك آمنتُ ولك أسلمت، سَجَدَ وجهي للذي خَلَقَهُ وصوَّرَه فشَقَّ سمعَه وبصره، فتبارك الله أحسنُ الخالقين**» [3].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، حديث رقم ٧٧١، من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب اباب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، حديث رقم ٧٧٢، من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) رواه أبو داوود في سننه، كتاب أبواب تفريع استفتاح الصلاة، باب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء، حديث رقم ٧٦٠، من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحكم عليه بالصحة، انظر سنن أبي داوود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ج١، ص ٢٠١ .

والركوع والسجود غايةُ التواضع لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالبدن، ومنتهى الخشوع؛ ولذلك فهما لبُّ الصلاة، وكثيراً ما يعبِّر القرآنُ عن الصلاة بذكر هذه الأركان التي تصوِّرُ تمامَ العبادة فيها: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[الحج: ٧٧].

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ..﴾[الفتح: ٢٩].

وفي الجلوس يشيرُ المصلِّي بسبابته[1] نحوَ القبلة الواحدة؛ إخلاصاً وتوحيداً، ويأخذ في تحريكها موافقةً للسانه وهو يتحرك بالتحيَّات لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وبالسَّلام على النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى نفسِه وإخوانه، وبالشهادة ألَّا إلهَ إلا الله وأنَّ محمداً عبده ورسوله.

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب التشهد في الصلاة، حديث رقم ٤٠٢، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ويبدأ المصلِّي ويعيد في أركانِ الصلاة وأذكارِها تأكيداً للمعاني وتثبيتاً لأثرها في نفسه، ويلتزم في صفاتها وهيئاتها بسنَّةِ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دقَّةً في الإتباع والطاعة، ويتجنب في أوضاعه التشبُّه بالحيوان تأكيداً لإنسانيَّتِه المكرَّمة وتمييزاً لصور التذلُّلِ والخضوع التي تصدر عن خيار الإنسان العاقل الشاعر بمسئوليته، الواعي بمعنى عَمَلِه عمَّا تأتيه البهائمُ بالطبع والغريزةِ.

فالصلاة الخاشعة مقالاتٌ خالصةٌ يلهج بها الإنسان تصديقاً لما يقوم بالفؤاد من التوجه إلى الله بالتعظيم والثناء والطاعة والولاء، وأوضاعٌ بدنيَّةٌ يتواضع بها الإنسانُ ويستكين لربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويعود المصلِّي إلى ذلك الذكر وتلك الأوضاع مثنى أو ثُلاث أو رُباع في الصلاة الواحدة، فإذا تعاقبت الصلواتُ فرضاً ونفلاً طوالَ يومِ المسلِم أَورَثَهُ ذلك من مهابة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما يحمله على الامتثال لأوامرِه والتزام طاعته في كلِّ مجال.

٢- تكامل في الدين وطاعة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

مِن عبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى التفكُّرُ في الكون والنفسِ والتأمُّل في آيات الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ونعمائه، ومنها الكَلِمُ الطيِّبُ تسبيحاً وتحميداً، ومنها عبادةٌ فعليَّةٌ تُنفِّذُها الجوارح، أمَّا الصلاة فهي عبارةٌ شاملة لكلِّ وجوه التعبُّد، قاعدتها نيَّةٌ وشعورٌ ينطوي على

كلِّ أنواع الخاطرِ، وأقوالٌ تعبِّرُ عن جميع المعاني اللائقة بخطاب العبد لربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأوضاعٌ فعليَّةٌ تشترك فيها كلُّ الجوارح.

ولما كانت الصلاةُ هي عماد الدين؛ فإنَّها تعلِّمُ المسلمَ وتبصِّرُه بشمول تكاليف الدين، فليس الدينُ مجرَّدَ انتماءٍ نظريٍّ يرضى مِن أتباعِه بحالةِ اعتقادٍ عقليّ، ولا هو شعارٌ لفظي يقول فيه المرء بلسانه ما يقول ولكنه كذلك التزام عملي وفعل يصدق إيمان المرء وزعمه.

وتكاد تتميَّزُ الصلاةُ في الإسلام عنها في سائر النِّحَلِ بركوعها وسجودها وحركاتها، كما يتميَّزُ الإسلام بأنَّه دينٌ لا يرضى من المسلم بالانطواءِ على عاطفةٍ مخلصةٍ وشعورٍ روحي، كما هو مفهوم الدينِ في كثيرٍ من المِلَل، ولا يكفي في الإسلام ترددُ التسابيح والتعاويذ والدعوات كما يعهد في كثير من الديانات، وإنما يجب على المسلم أن يكمل دينَه بتنفيذ التكاليف العمليَّة الخاصَّة والعامة، فتتَّسِقُ طويَّتُه وظاهره، ويستقيم قولُه وعمله: «ليس الإيمانُ بالتمنِّي، ولكن ما وقر في القلب وصدَّقَهُ العملُ»[1]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا

(١) السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين ت (٩١١هـ)، صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته، حديث رقم ١٠٣٤٨، من =

﴿لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢ - ٣]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝١٣ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣ - ١٤].

والصلاة بحركاتها الجسدية ترويضٌ لجسم الإنسان مَتْنًا وأطرافًا، وهي بذلك تُحدِثُ أثراً عضويّاً نافعاً كبعض الذي يُحدِثُه ما يتعهَّدُ الناسُ من مناهجِ الرياضةِ البدنيّة، ولكن مهما تكن هذه الفائدةُ الجانبيَّة فإنَّ جوهر ما يترتَّبُ على الصلاة ذاتِ الحركات هو ترويضُ نفسِ المصلِّي وإلانَةُ جوارحه لطاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والخشوعُ في أركان الصلاة تذكيرٌ للمسلِم بأنَّ العمل الظاهرَ لا يتمُّ إلا إذا تجاوبت معه حالةٌ نفسيَّةٌ صالحة، وهذا أيضاً وجهٌ من وجوه تكامل الدين - لا تستقيم النيَّات إلَّا إذا صدقتها الأعمالُ، ولا تصحُّ الأعمالُ إلا إذا أسست على تقوى النفوسِ وقُصِدَ بها الامتثالُ لأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

= حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: موضوع، انظر حديث رقم: ٤٨٨٠ في ضعيف الجامع للألباني.

وقد أعقبت أحكامَ القبلةِ من سورة البقرة آيةٌ جامعةٌ، فحواها: أنَّ الدِّين ليس طقوسًا شكليَّةً، إنما هو إيمانٌ راسخٌ، وعملٌ صالح في كلِّ مجالات الحياة: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾[البقرة: ١٧٧].

والصلاة بأقوالها المأثورة وحركاتها المسنونة تربيةٌ للمسلم في اتِّباع نهج الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واتخاذِه قدوةً حسنةً في سائر مَسلَكِ الإنسان، فالرسولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوصينا في شأن الصلاة: «**صلُّوا كما رأيتموني أصلِّي**»[1]، وكان أصحابُه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يلاحظون فعلَه فيها فيقلِّدونه بدقَّةٍ ويزكُّون الواحدَ منهم فيَصِفُونَه بأنَّه أشبهُ الناسِ بصلاة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والذي يراعي هذه السنَّةَ الباقيةَ ويلتزمها مرَّاتٍ في اليوم الواحد يَذكُرُ فيها ما بلغه من أذكارِ الرسولِ حرفًا حرفًا، وينهج

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، حديث ٦٠٠٨، من حديث أبي سليمان مالك بن الحويرث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

في صفتها ما رويَ من أفعاله حركةً حركةً، والذي يستشعر في ذلك كلِّه تقليدَ الرسولِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ واتِّباعَ سنَّتِه؛ مصبحٌ بلا ريبٍ متعلِّقًا بطريقة الرسولِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ينهج نَهجَهُ في سائر جوانب الحياة، ويحيي ما دَرَسَ من سنَّته، ويصير هَوَاهُ تبعًا لما جاء به محمَّد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَذكُرُ إذا ذُكِّر، ويتوب إذا قَصَّر، ويضع نصبَ عَينَيه موعظةَ الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ البليغة: «**عليكم بسنَّتي وسُنَّةِ الخلفاءِ الراشدين المهديِّين، عضُّوا عليها بالنواجذ، وإيَّاكم ومحدثات الأمور؛ فإنَّ كلَّ بدعةٍ ضلالة**»[1].

والصلاة كذلك تربيةٌ تهيِّئُ المسلمَ لطاعة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ حيثما كان، فالذي يطوِّعُ جوارِحَهُ لأمر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وهو خاشع، والذي يولي وجهَهُ شطرَ الكعبة لا يلتفت، والذي ينصب يديه بالتكبير مُستسلِمًا لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، والذي يحني قامته راكعًا ساجداً، والذي يُراقِبُ اتباع سُنَّةِ الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بكلِّ طرفٍ من أطرافه؛ الذي يفعل ذلك ويعود إليه في كلِّ ركعةٍ وعند كلِّ صلاةٍ؛ فهو بلا ريبٍ طائعٌ لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في سائر

(١) رواه أبو داوود في سننه، كتاب السنة، باب في لزوم السنة، حديث رقم ٤٦٠٧، من حديث العرباض بن سارية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وحُكِمَ عليه بالصحة، انظر سنن أبي داوود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ج٤، ص ٢٠٠ .

أموره، فإذا تجاوز مسجدَه وخالط دنيا الناسِ التزمَ تقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وراقبه في كلِّ عمل.

والذي يستنكفُ عن رهن جوارحِهِ لطاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مرات معدودة في اليوم، وإحناءِ مَتْنِهِ وتعفيرِ وجهه تذلُّلاً وانكساراً؛ لا يرجى منه أن يَقِفَ عند حدودِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أو يَلينَ لأوامره خارج الصلاة.

والذي يستخفُّ بصلاته وإذا قام إليها قامَ كسلانَ يسرق من ركوعها وسجودها، فذهنه مُدبِرٌ شَرُودٌ، وبدنه لا يلزم السكينةَ والوقار؛ فهو الذي يَجِدُ في نفسه حَرَجاً من طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كلِّ تكليف آخر، وإذا أطاعه فهو كاره لا يستوفي أركان الطاعة ولا يرعاها حقَّ الرعاية.

وهذا التلازم بين طاعة الصلاة وسائر الطاعات في الحياة هو الذي جعل أركانَ الصلاة من ركوعٍ وسجودٍ رمزاً للطاعات عامة، وبهذا المعنى العامِّ وَرَدَ ذكرُ هذه الأركان في كثيرٍ من آيِ القرآن: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾[البقرة: ٤٣]، ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴾[المائدة: ٥٥]، ﴿ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ﴾[الرعد: ١٥]، ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ ﴾[المرسلات: ٤٨]، ﴿ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾

﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ﴾[الانشقاق: ٢٠ - ٢١]؛ فالركوع والسجود هنا إنما هو الانصياع والطاعة[١].

وهذا التلازم أيضًا هو الذي يفسِّر اقترانَ الصلاة في القرآن الكريم بسائر أعمال البرِّ وأوجه الطاعات؛ إذ الصلاةُ طاعةٌ تستتبع بقيَّة الطاعات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧]، ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[المؤمنون: ١ - ١١]، ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[المجادلة: ١٣]،

(١) الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي ت (٣١٠هـ)، جامع البيان في تأويل القرآن، المحقق: أحمد محمد شاكر الناشر: مؤسسة الرسالة، ط١ (١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م)، (ج١، ص٥٧٢- ج١٦، ص٤٠٣- ج١٤، ص ١٤٤).

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج: ١٩ - ٣٥].

وقد أوضحنا قبلاً كيف تستتبع الصلاةُ الزكاةَ والصدقة، ولا يخفى كيف يدعو سكوتُ الصلاة وقنوتُها إلى الإعراض عن اللغو في جميع الأحوال، أو كيف يتربَّى المسلمُ بانضباط الأعضاء وانصياعها لحدود الصلاةِ على انضباط الأعضاء الجنسيَّة بحدود الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أو كيفَ يتعلَّم مَن يتعهَّد الأوقات المكتوبة أن يَفِيَ بعهده كلِّه، ومن التزام القبلةِ والوجهة المستقيمة أن يستقيمَ في أداء الشهادة بلا ميلٍ، ثمَّ لا يخفى عمومًا أثرُ الصلاة في التذكير بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والإيمان بالغيبِ والجزاء ممَّا يبعث على كلِّ طاعةٍ وينهى عن كلِّ معصية وفسوق.

وخلاصة القولِ: إنَّ الصلاة تدعو إلى الطاعة وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؛ لأنَّها تمثِّلُ تمامَ الانصياع بالبدن من المتن إلى أطراف الأصابع، وتمامَ الخشوع شعوراً وتعبيراً، فهي مِرانٌ على الخضوع، وتركيزٌ للإيمان بجلالِهِ وعظمته ممَّا يستوجب الطاعةَ الوافية الصادقة، وبهيبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وجبروته ممَّا يُورِثُ طاعته وخشيتَه فيما أمَرَ، كما يُورِثُ تقواه فيما نهى، والإنابة إليه بعد المعصية.

الصَّلاة طهَارة وإنَابَة وتَقوَى

١ - طهارة وإنابة:

الصلاةُ لقاءٌ يسعى إليه العبدُ لمناجاةِ ربِّه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فهو يتهيَّأُ له بالطهور غسلاً أو وضوءاً، أو تيمُّماً؛ ذلك أنَّه يستحي أن يلقى ربَّه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وقد ضيَّع عهده أو تباعدَ عنه بالإيغال في طبيعته الأرضية، أو في الغفلة والنسيان، فكلَّما استغرقَ في نومٍ أو شهوةٍ أو باشرَ شيئاً من قضاء الحاجة فلامَسَتْهُ التلوُّثاتُ البشرية، وغَشِيَتْه الغفلةُ؛ كان في حاجةٍ لتطهير نفسه من رَينِ حياته البهيميَّة والماديِّة ليزكو فيه عنصرُ الروحِ ويستشرف لعالمها حيث يلقى ربَّه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وفي الغسل والوضوءِ نظافةٌ بدنيَّةٌ لائقةٌ بعبدٍ يتجمَّل لموقفه مع ربِّه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ ليلقاه نظيفاً وضيئاً. ومن آثار الطهور في حياة المسلمين عامّةً أن أصبحت النظافةُ من مظاهرهم اللازمة؛ فقد شُرِعَتْ لهم بأسبابٍ من قضاء حاجةِ الجنسِ والجسمِ، تتكرَّرُ بحكم العادة البشرية، ولذلك توالت عليهم النظافةُ، منها ما يشمل الجسدَ كلَّه، ومنها ما يقتصر على الأطراف المتعرضة للأوساخ، فكان لذلك الغسلُ عند مباشرة الجنسِ أو يومَ الجمعة، وكان لهذا الوضوءُ مراتٍ في اليوم الواحد.

ومن سُنَّةِ المسلمين كذلك السواكُ عند كلِّ صلاة، وهو سبب لنظافة الفَمِ وطهارته.

وإذا كانت النظافةُ الظاهرة من أهم آثار الوضوء؛ فإنَّ معناه الأكبر هو نظافة الروح، وتجليةُ النفسِ من أصداء الذنوب، ورواسبِ البُعدِ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فالمتوضِّئُ يأخذ الأعضاءَ التي تكسب الخطايا بالغسل، فيسيل عليها ماءً طهوراً، ويدلكها ويتقن غسلها تكراراً؛ تعبيراً عن نيَّتِه في أن يجتهدَ في إزالة الذنوبِ ونَزْعِها وطَرْحِها وتعقُّبِ مصادرها بعلاجِ التكفير: «**إذا توضَّأ العبدُ المسلمُ فغَسَلَ وجهَهُ خَرَجَ من وجهه كلُّ خطيئةٍ نَظَرَ إليها بعينَيه مع آخر الماء، فإذا غَسَلَ يديه خرجَ من يديه كلُّ خطيئةٍ كان بَطَشَتْها يداه مع الماء، فإذا غسل رجلَيه خرجت كلُّ خطيئةٍ مشتها رجلاه مع الماء، حتى يخرجَ نقيّاً من الذنوب**»[1].

ويبدأ المتوضِّئ عملَ الطهور بسم اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويدعو - إن شاء - مستغفراً ذنبَه، وداعياً ربَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يكفِيَه أسبابَ الذنوب ليوافقَ قولُه عَمَلَه: «**اللهمَّ اغفِرْ لي ذنبي، ووسِّع لي في داري، وبارك لي في رزقي**»[2].

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب خروج الخطايا مع ماء الوضوء، حديث رقم ٢٤٤، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه الإمام النسائي في السنن الكبرى، كتاب عمل اليوم والليلة، =

وإذا أكمل المتهيِّئُ للصلاة وضوئه وأحسنَه؛ تمَّ له التطهر من الذنوب: «**مَن توضَّأ غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه، وكانت صلاتُه ومَشْيُه إلى المسجد نافلةً**»[1]، «**أَلاَ أدلُّكُم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات: إسباغُ الوضوءِ على المكاره، وكثرة الخُطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة؛ فذلك الرباط**»[2].

وعندما يُقبِل المصلِّي على صلاته يستر عورتَه البادية بلباسٍ طاهرٍ، ولا يتمُّ له معنى السترِ حتى يسترَ كذلك عوراتِ نفسِه

= باب ما يقول إذا توضأ، حديث رقم ٩٨٢٨، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال الحافظ ابن حجر: رواه الطبراني في "الكبير" من رواية مسدد وعارم، والمقدمي؛ كلهم من معتمر، ووقع في روايتهم: فتوضأ، ثم صلى، ثم قال: ... وهذا يدفع ترجمة ابن السني حيث قال: باب ما يقوله بين ظهراني وضوئه؛ لتصريحه بأنه قال بعد الصلاة، ويدفع احتمال كونه بين الوضوء والصلاة.
قال: وأما حكم الشيخ على الإسناد بالصحة؛ ففيه نظر؛ لأن أبا مجلز لم يلق سمرة بن جندب ولا عمران بن حصين فيما قاله على ابن المديني، وقد تأخرا بعد أبي موسى؛ ففي سماعه عن أبي موسى نظر، وقد عهد منه الإرسال عن من لم يلقه، انظر نتائج الأفكار، ج١، ص٢٦٣ .

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء والصلاة عقبه، حديث رقم ٢٢٩، من حديث عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، فضل إسباغ الوضوء على المكاره، حديث رقم ٢٥١، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الباطنيَّة بلباس التقوى، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يعلم السرَّ والعَلَن، ولا تخفى عنه خافية النفوس، وإنَّما يواري المصلي ما يشين سريرته بالحياء ويمحوه ويطرحه بالمَتَابِ.

ويتزيَّن المصلي بالهيئة الجميلة بين يدي الصلاة: ﴿۞يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾[الأعراف: ٣١]، ويكمل ذلك الطلاء الظاهر بأن يزدان[1] بتقوى النفسِ ليحسن صورته الباطنة.

والتلازم بين التقوى والستر الظاهر وبين الخطيئةِ وكشف العورة معنى نَجِدُ سرَّه في قصة آدم وحواء، إذ بوَّأهما ربُّهما من الجنَّة نزلاً يأكلان حيث شاءَا رَغَداً، ونهاهما عن الشجرة، فأغراهما الشيطان فما إن ذاقَاها حتَّى بدت لهما سوءاتُهما وطَفِقَا يخصفان عليهما من ورق الجنَّة ويستغفران الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ويسترحمانه.

وكتب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من وصيته الخالدة: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآ﴾[الأعراف: ٢٦ - ٢٧].

ومن طهارة الصلاة وسترها وزينتها يعتادُ المسلمون نظافةَ

(١) أي: يتزيّن.

البدن وطهارةَ الثوب وحسنَ الهيئة باعتيادهم إقامَ الصلاة، فتطيب حياتُهم كلُّها، وتتوافر لهم أسبابُ الصحَّة العامَّة والجمال فضلاً عن طهارة النفس وستر عيوبها وحسن الطويَّة وجمالها.

ويقف المصلِّي بين يدي ربِّه مُطرِقًا في تذلُّل، ويركع له ويسجد استكانةً واستعطافًا، ولا يكاد ينفكُّ من استغفارِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في أذكاره، فإذا أسلمَ وجهَه لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قائمًا سأل ربَّه أن يتم له طهوره: «**اللهمَّ باعِدْ بيني وبين خطاياي كما باعدتَ بين المشرق والمغرب، اللهمَّ نقِّني من خطاياي كما ينقَّى الثوب الأبيض من الدّنس، اللهمَّ اغسلني من خطاياي بالماء والثلج والبَرَدِ**»[1].

ويدعو المصلِّي وهو أقربُ ما يكون لربِّه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: «**اللهمَّ أعوذ برضاك من سَخَطِك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصى ثناءً عليك أنتَ كما أثنيتَ على نفسك**»[2].

«**اللهم اغفر لي ذنبي كلَّه، دقَّه وجلَّه، وأوَّلَه وآخره، وسرَّه**

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، بابما يقول بعد التكبير، حديث ٧٤٤، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، بابما يقال في الركوع والسجود، حديث رقم ٤٨٦، من حديث السيدة عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا.

وعلانيته»[1]، إلى غير ذلك من عبارات الاستغفار.

وإذا استوى قاعداً بين سجدتين دعا: «**اللهم اغفر لي وارحمني**»[2]، وبعد التشهُّد يختم صلاته بالاستغفار: «**اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً وإنَّه لا يغفر الذنوبَ إلَّا أنت فاغفر لي مغفرةً من عندك، وارحمني إنَّك أنتَ الغفور الرحيم**»[3]. ثمَّ يعود إلى مزيدٍ من الاستغفار بعد السلام.

فالمصلِّي المتطهِّر المستغفر الخاشع يخرجُ من صلاتِه وقد تبرَّأ من ذنوبه وكفَّرَها بما اجتهدَ في توضُّئه وتستُّره، وصَدَقَ في طلب عفوِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأحسنَ في أداء الطاعة: «ما من امرئٍ مسلمٍ تحضره صلاةٌ مكتوبةٌ فيُحسِنُ وضوءَها وخشوعها وركوعها إلَّا كانت كفَّارةً لما قَبلَها من الذنوب، ما لم يؤت

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، بابما يقال في الركوع والسجود، = = حديث رقم ٤٨٣، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه أبو داوود في سننه، كتاب أبواب تفريع استفتاح الصلاة، باب الدعاء بين السجدتين، حديث رقم ٨٥٠، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وحسنه الألباني.

(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، بابقول الله تعالى ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ (النساء:١٣٤)، حديث ٧٣٨٧، من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، حديث رقم ٢٧٠٥.

كبيرة ذلك الدهر كلّه»[1].

وللراكعين جميعًا أسوةٌ حسنةٌ وبشرى طيبة في قصَّة توبة داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، ونعم العبد إنَّه أواب: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾[ص: ٢٤ - ٢٥].

وإنَّ الصلاةَ بذلك لأكبرُ صُوَرِ التوبةِ؛ لأنَّها بأذكارها تعبيرٌ وافٍ عن طلب العفوِ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وبأفعالها تمثُّلٌ صادقٌ للتذلُّلِ إليه رجاء مرضاته ورحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والمسلم المحافِظُ على صلاته يعود إليها خمس مرَّاتٍ في اليوم على الأقل، ويعود بذلك إلى توبته، فتتخلَّلُ التوبة يومَه كلَّه، ولا تكاد تُبقِي من ذنوبه شيئًا: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ ۚ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾[هود: ١١٤].

«**أرأيتم لو أنَّ نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كلَّ يومٍ خمس مرات، هل يبقى من دَرَنِهِ شيء؟**» قالوا: لا يبقى من دَرَنِهِ شيء. قال: «**فذلك مثلُ الصواتِ الخمس، يمحو الله بهنَّ الخطايا**»[2].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء والصلاة = = عقبه، حديث رقم ٢٢٨، من حديث سعيد بن العاص عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلوات الخمس كفارة، حديث ٥٢٨، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٢- تقوى ومزدجر عند المعاصي:

الصلاة تذكرةٌ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ غافرِ الذنبِ قابلِ التَّوبِ شديدِ العقاب، ويُتلَى فيها القرآن فيَرِدُ فيه ذكرٌ لعذاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فيستعيذ القارئ المتدبِّر، وبيانٌ لمحارمِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ولمكارهه فيعزم المصلِّي الخاشع ألَّا يقعَ فيها حذراً من حسابِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وسخطه وعقوبته، وأملاً في رضاه ومعافاته، ويستذكرُ المصلِّي فتنةَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وعذابه فيلوذُ به في بعض دعائه: «**اللهمَّ إني أعوذُ بك من عذاب جهنَّم ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات ومن شرِّ فتنة المسيح الدجال**»[1].

ومجملُ القولِ: إنَّ الصلاة تنمِّي إيمانَ المؤمنِ بالغيب وتزيد خشيتَه من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيتقي عذابَه بالتواضع لأمره واجتناب نواهيه؛ ولذلك اقترن ذكرُ الصلاة في القرآن بالإيمان بلقاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والخوف من جنابه: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[البقرة: ٤٥ - ٤٦]. ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[الأنعام: ٧٢].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يستعاذ منه في الصلاة، حديث رقم ٥٨٨، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[الأنعام: ٩٢]، ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[الحج: ٣٤ - ٣٥].

فالصلاة والتقوى متلازمتان؛ لا يقيم الصلاةَ إلَّا الذين يتقون، ولا يتمُّ خشوعها إلَّا الذين يخشون لقاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتزيد هؤلاء صلاتُهم إيمانًا بالله وتُقَاه لما نهى عنه. فإذا قام الخاشعُ من صلاتِه قام وقد تمكَّن منه خوف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يزجره عن كلِّ فحشاءٍ ومُنكَرٍ.

ولا تلهيه دنياه وعلائقه الماديَّة حتى تحلَّ عليه الصلاة التالية، فتزوِّدُه بشحنةٍ من التقوى.

ولذلك كانت الصلاة من أعظم النواهي عن المعاصي: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾[العنكبوت: ٤٥].

وقد أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بني إسرائيل ألَّا يكفروا بكتابه

ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَغيـًا وحَسَداً، وألَّا يشتروا بآياته ثمنـًا قليلاً، وألَّا يلبسوا الحقَّ بالباطل، وأوصاهم بالاستعانة بالصلاة على مجانبة تلك المعاصي، ومدافعة هوى النفس: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾[البقرة: ٤٥].

والصلاة هي التي تَعصِمُ صاحبها من الهوى، فينتظم بها في موكِبِ الذين أنعم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليهم، كما يطلب المصلِّي من ربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في دعاء الفاتحة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾[مريم: ٥٨ - ٥٩].

وتضييعُ الصلاة غفلةٌ متَّصلةٌ عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ولقائه، تُنسِي المرءَ معاني الخوفِ والتقوى، وهو كذلك هجرانٌ لما يتلى فيها من آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الداعية للبرِّ والطاعات الناهية عن الغرور بالدنيا والوقوع في المعاصي والشهوات.

والذين يؤدُّون الصلاةَ فإذا قاموا من مسجدهم تخطَّفَتْهم شهواتهم؛ إنَّما أدَّوها ساهين لاهِين، لم يُحسِنُوا فيها الخشوعَ، ولم يقتربوا بها من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقد قرَّر القرآن أنَّ الاستعانةَ بالصلاة على هوى النفسِ خطَّةٌ تكبُرُ على غير الخاشعين:

﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[البقرة: ٤٥ - ٤٦].

وقد جَهِلَ قدرَ الصلاة الذين لا يدركون أَثَرَها الشامل في النهي عن المعاصي في كلِّ جانبٍ من جوانب الحياة، فما أَسْفَهَ أحلامَ مَدْيَنَ إذ جاءهم أخوهم شعيبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يدعوهم للإيمان ولتقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في علاقاتهم الاقتصادية، وإلى توفير الحريَّة للعابدين، فاستنكروا فيما استنكروا شمولَ الدين، واستبعدوا الصلةَ بين شعيرة الصلاةِ ومن المنتهى عمَّا هم فيه من ضلال: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾[هود: ٨٧].

وإذا كان المسلِمُ يقع في المعاصي فإنَّ الصلاة توبةٌ له تتوالى طولَ اليوم فتتعاقب على خطاياه فتمحوها كلَّما تراكمت بين فترات الصلاة، وهذا التعاقب يعلِّمُ المسلِمَ أن يجدِّدَ التوبةَ دائماً قبلَ أن تحيط به الخطيئة، والإنسان إذا بقي على معصية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عهداً طويلاً تراكمَ عليه الدين[1] وقَسَا قلبه، وأغراه التراخي بأن يمنِّي نفسَه بتوبة آيلة، ولكنَّ المعاصي

(١) لعل الصواب: الرَّين.

تحُول بينه وبين نفسِه فلا يملك إلَّا أن يتمادى ويلهيه أملٌ في التوبة أبعدُ، وهكذا يتباعد عن ربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حتى يدركه الموتُ وهو من الخاسرين.

أمَّا المصلِّي فهو يعجل التوبةَ بعد التوبةِ؛ لأنَّه في كلِّ مرَّةٍ يطهِّرُ ظاهرَه وسريرته بالوضوء، ثم يستر عورتَه البادية والباطنة، ثم يُقبِلُ على صلاته فيكمل توبتَه ويؤكِّدُها فيها عملاً وقولاً، ولا يغادر مجلسَه بعد الفراغ من صلاته حتى يستغفرَ مرّةً أخرى ويسبِّحَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ويحمده ويكبِّره ثلاثـًا وثلاثين، ويتم المئةَ بـ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كلِّ شيءٍ قدير، فتغفر خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر[1].

وهذا التوالي في التوبات قبل تمكين الخطيئة يدوم على المسلِم بدوام الصلاة، فيصبح توَّابـًا، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يحبُّ التوَّابين المتطهِّرين، ويتعلَّم الإنابةَ إلى الحقِّ ومحاسبةَ النفس من قريبٍ، ولا يُتبِعُ نفسَه هواها: «**يا أيُّها الناس توبوا إلى الله، فإنِّي أتوب إليه في اليوم مئة مرَّة**»[2].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، حديث رقم ٢٦٩١، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار،

وتكرار الاستغفارِ والتوبة من الذنوب ينمِّي في المصلِّي إيمانَه بقِيَمِ الإحسان والإساءة؛ لأنَّ مقارفَةَ الذنوب تزيد رَينَ القلوب، وتزيِّنُ الخطيئةَ، وتُضعِفُ شعورَ الإنسان بعنصر السوء فيها، بينما تؤكِّدُ التوبةُ المتعاقِبَةُ في النفس تقديراً دقيقاً لمعايير الخير والشرِّ، وتُورِثُ اعتصاماً بمحاسن الأخلاق وهَجراً لمساوئها.

والتوبة معنى كبيرٌ بين معاني الدين، فيها مرضاةُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بل فرحتُه: «**لله أفرحُ بتوبة عبدِه من أحدكم سَقَطَ بعيره وقد أضلَّه في أرض فلاة**»[1]، وعليها تترتَّب بُشْرَياتٌ طيِّبةٌ: «**مَنْ لَزِمَ الاستغفارَ جعل الله له من كلِّ ضيقٍ مَخرَجًا، ومن كلِّ همٍّ فَرَجًا، ورَزَقَه من حيث لا يحتسب**»[2].

وتلك ذاتُها هي بُشرى المتقين: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا

باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه، حديث رقم ٢٧٠٢، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب التوبة، حديث ٦٣٠٩، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه أبو داوود في سننه، كتاب الصلاة، باب في المحافظة على وقت الصلوات، حديث رقم ١٥١٨، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وضعفه الألباني.

﴿٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ - ٣]، وهي لذلك أيضـًا بُشرى المصلِّين؛ لأنَّ الصلاةَ أكبرُ أسباب التوبة والتقوى جميعـًا، وكما رأينا آنفـًا في الصلاة أنَّها متابٌ للعبد ومحطٌّ لخطاياه ومزدجرٌ يعصمه من المنكَرِ والحرام، نَرَى فيها من وجهٍ آخَرَ أثراً إيجابيـًا -إنها دافعٌ للهمَّة والأمل، ومسألةٌ يرجو فيها العبد من عطاءِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وتوفيقِه - وحافزاً ينهضُ به إلى المعروفِ والواجبِ بجدٍّ وفعاليةٍ.

الصَّلاة تزكيَة للإيمَان وقوَة لدَوافِع الجهَاد

١- قربى وتذكرة بأصول الإيمان

الصلاة زُلفَى إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكان فرضها كما قدَّمنا عن أقرب ما بلغ المعراج اشعاراً بأنَّها أعظم القربات إليه تعالى، وفي سجودها يبلغ المصلِّي غاية القرب الذي تهيؤه له درجةُ تقواه: «**أقرب ما يكون العبدُ إلى ربّه في السجود**»[1].

والإنسان ما دام في الأرض عرضةً لِأَنْ تباعِدَ بينه وبين عالمِ الروحِ تعلُّقاتُه الماديَّة وشهواته البهيميّة، ووسوسة الشيطان وإغراءاته، وبذلك تجفُّ عروق الإيمان في نفسِه حتى تسعفه الصلاة، كالواحة في صحراء الدنيا يدنو فيها من ربِّه فتروى روحه من برد اليقين.

ففي الصلاة يممِّمُ المسلِمُ شطرَ الكعبة فيسلم وجهَه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ويُقبِلُ عليه، لا يلتفت عنه ببدنه ولا بذهنه، ويسكت عن الناس، وينصرف عن علاقاتهم قانتاً لله حنيفاً لا يشرك به شيئاً، ويقوم يناجي ربَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وقد رفع كلَّ حجابٍ حائلٍ بطهور الجسمِ والروح وسترِ العورة الظاهرة والباطنة، وبالاستغفار بعد الاستغفار فجلَى نفسَه من رين الخطايا لتباشِرَ معاني القربِ وتجد حلاوةَ الإيمان.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، حديث رقم ٤٨٢، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ويظلُّ المصلِّي يحيِّي ربَّه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بالكَلِمِ الطيِّبِ، يحمده ويثني عليه الخير كلَّه، ويمجِّدُه فيوليه مطلقَ التعظيم، ويسبِّحُه فينزِّهُه من كلِّ نقصٍ، ويسخِّرُ جوارِحَه معبّراً عن طاعته والخضوع له، فيقبض يديه مُستسلِماً، ويحني قامتَه معظِّماً، ويسجد لربِّه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الأعلى حاضراً في ذلك كلِّه ذهنَه، خاشعاً لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بقوله وفعله، مخبتاً له بكلِّ كيانِه.

فالصلاة التامَّة إذاً أوثقُ أسباب القرب من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فمَن ضيَّعها أدبر عن ربِّه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وابتعد: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾[القيامة: ٣١ - ٣٢]، ومَن تعهَّدَها بالحفظ وأبى أن يطيعَ فيها الصوادّ عن ذكر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فإنَّما حفظَ لنفسِه قُربَ المقام من ربِّه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾[العلق: ١٩].

وكلَّما أحسنَ العبد قيامها فرضاً ونافلةً توطَّدت صلتُه بربِّه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ حتَّى يُصبِحَ ولّياً رَهْنَ أمر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لا يتحرَّك إلَّا موافقاً له: «**إنَّ الله تعالى قال: مَن عادى لي وليّاً فقد آذنتُه بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي**

يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيتُه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه»[1].

فقُربُ العبدِ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالتوجُّه والقنوت والذكر والخشوع يزيدُ إيمانَه بالغيب ويقينَه بالجزاء، فيشتدُّ خوفه ويقوى رجاؤه: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[السجدة: ١٥ - ١٦].

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾[الزمر: ٩].

أمَّا حَذَرُ الآخرة فقد تقدَّم ذكرُه، واتَّضح أثره في زيادة التقوى والانتهاء عن حرمات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والازدجار عن كلِّ فحشاء ومنكر، وترادُ الاستغفار وتوالي التوبات. وإنما تدعو الصلاة لذلك لأنَّها تعبيرٌ عن خشية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وسببٌ لزيادة الخوف منه.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الرقائق، باب التواضع، حديث ٦٥٠٢، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأمَّا رجاء رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فتعبِّرُ عنه وتزيدُه كثرةُ الدعاء في الصلاة، فالصلاة لحظة قربٍ ينتهزها العبد للدعاء، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رحيمٌ ودود، إذا تقرَّب إليه عبدُه شبراً تقرَّب إليه ذراعًا، وإذا تقرب إليه ذراعًا تقرب إليه باعًا، وإذا أتاه يمشي أتاه هرولة»[1]. وهو سميعٌ مجيبٌ يجيب دعوة الداعي إذا دعاه.

وقد ذكر القرآنُ في ذلك قصَّةَ زكريَّا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إذ دعا ربَّه ذريَّةً طيِّبةً وهو شيخٌ كبير وامرأتُه عاقر، فجاءته البُشرى وهو في مصلَّاه: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[آل عمران: ٣٩].

وأشدُّ ما يكون قُربُ المصلِّي في سجوده، ولذلك كان السجودُ موضعَ الاجتهاد في التضرُّع إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: «**وأمَّا السجود فاجتهدوا في الدعاء، فقَمِنٌ أن يستجابَ لكم**»[2]. ويتهيَّأ المصلي لهذا الموضعِ القريب بأن يشهدَ لدى القيام من الركوع بأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سامعٌ لمن حمده، ثمَّ يقوم حامداً

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب ذكر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وروايته عن ربه، حديث ٧٥٣٦، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود، حديث رقم ٤٧٩، من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حمداً كثيراً طيّبًا مباركًا فيه ملءَ السموات والأرض، وما شاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعد، ثمَّ يهوى للسجودِ ليُخلِصَ في السؤال واثقًا أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سميعٌ حميدٌ.

وأصلُ الصلاة في اللغة الدعاء، فلا غروَ إن اتَّسع المجال فيها لسؤال المصلِّي ربَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فله أن يدعوَ عن قيامٍ دعاءَ الاستفتاح، ودعاءَ القنوت في صلواتٍ أو ظروفٍ مخصوصة، وله أن يدعوَ عن جلوسٍ بين السجدتين، وبعد التشهُّد وعقب السلام.

وللمصلِّي أن يتخيَّر من الدعاء ما يشاء إلَّا أنَّ واجبَ الدعاء سؤالُ الهداية إلى الصراط المستقيم في فاتحة الكتاب، وأفضله المأثور عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والدعاءُ مخُّ العبادة كلَّما أكثرَ منه المسلِمُ استشعر قُربَه من ربِّه ورغبتَه إليه، وقوَّى رجاؤه وتوطَّدت بينَه وبين ربِّه الأسباب؛ فالصلاة مطيَّةُ القربِ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنَّها أخلصُ مجالات الدعاء.

وفضلاً عن الخوف والرجاء فإنَّ من معاني الإيمان التي تدعو إليها وتزيدها الصلاة ثباتًا في نفس المؤمن: الشكر؛ فقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقوم من الليل حتَّى تتفطَّر قدماه، فقيل له: لمَ تصنعُ هذا يا رسول الله، وقد غُفِرَ لك ما تقدَّم من ذنبك وما

تأخَّر؟ فقال: «**أفَلا أُحِبُّ أن أكونَ عبداً شكوراً**»[1]، وقد وافقَ بذلك أمرُ ربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي أعطاه فأرضاه: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢﴾[الكوثر: ١ - ٢].

فالمصلِّي في خشوعه وتذلُّلِه، وفي تعظيمه لربِّه وتمجيده؛ يحاول فيما يحاولُ أن يؤدِّيَ بعضَ حقوق الشكر لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على جليل نعمائه، ولا عجبَ لذلك أن كانت فاتحةُ قراءتِه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[الفاتحة: ٢ - ٣].

والصلاة كما تقرِّبُ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وتبارِكُ في المصلِّي معانيَ الشكرِ والخوفِ والرجاء؛ فهي تَصِلُ المسلمَ كذلك بكتاب الله، وكثيرٌ من المسلمين يكادون يتَّخذون القرآنَ مهجوراً لولا الصلاة؛ لأنها لهم وردٌ يوميٌّ لازمٌ يقرءون فيه سوى فاتحة الكتاب ما تيسَّر من آيِ القرآن ممَّا يكون فيه ذِكرُ الآخرةِ ومواقفِ الحساب وخَبرُ الجنَّة والنار- موعظةً للخائفين والراجين- وتعدادُ نعمائه على العباد لعلَّهم يشكرون، وأوامرُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ونواهيه للطائعين والعاملين.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ (الفتح: ٢)، حديث ٤٨٣٧، من حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

والصلاة تذكِّرُ صاحبها بكلِّ ما في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من عهدٍ وميثاقٍ، وتدعوه لأن يُمسِكَ بالكتاب ويأخذَه بقوَّة: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾[الأعراف: ١٧٠].

ولعلَّ هذا التلازم هو الذي قرن بين تلاوة الوحيِ وإقامِ الصلاة وجهين من ذِكرِ الله يدعوان لطاعته واستشعارِ رقابته وعلمِه المحيط: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾[العنكبوت: ٤٥].

وكان أوفقَ لذلك أن تكونَ قراءةُ القرآن في الصلاة عن وقوفٍ؛ تمثيلاً لواجب القيام بأمرِ الكتابِ والنهوضِ بأعبائه وتكاليفه.

والصلاة ثالثًا تَصِلُ صاحبَها وتذكِّرُه بالرسول الكريم صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فإذا دعا المؤذِّنُ للصلاة فشَهِدَ برسالة محمَّد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ تجاوب معه مردِّداً كل قائم للصلاة، ثمَّ دعا في ختام الأذان: «**اللهمَّ ربَّ هذه الدعوة التامَّة والصلاة القائمة آتِ محمَّداً الوسيلةَ والفضيلة، وابعثه مقامًا محموداً الذي وعدتَه**»[1].

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب الدعاء عند النداء، حديث ٦١٤، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وكلُّ أعمال الصلاة تقليدٌ لصفة صلاة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ألفاظاً وحركاتٍ؛ استجابةً لأمره: «**صلُّوا كما رأيتموني أصلِّي**»[1].

وبعد التشهُّد والإقرار بالرسالة يدعو المصلي: «**اللهمَّ صلِّ على محمَّدٍ وعلى آل محمَّدٍ كما صلَّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمَّد وعلى آل محمَّدٍ كما باركتَ على إبراهيم إنَّكَ حميدٌ مجيدٌ**»[2].

٢- عونٌ على الصبر والمجاهدة:

من أثر الصلاةِ كما قدَّمنا توطيدُ الإيمان بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وتنميةُ الخوف والرجاء والشكر، وربطُ الصلةِ بالقرآن الكريم وبالرسولِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وإذا قويت أصولُ العقيدة في نفس المسلمِ فإنَّها تدفع للعملِ الصالح وللجهاد والصبر.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾ (الأحزاب: ٥٤-٥٥)، حديث ٤٧٩٧، من حديث كعب بن عجرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وقد تقدَّم الحديثُ عن أثر الصلاة في تعميق الإيمان بضوابط الأخلاق وزواجر التقوى، وإنَّما نخصُّ بالحديث هنا دوافعَ العمل الإيجابي الفعال.

فالعبد قد تحمِلُه مخافةُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على أداءِ الفروض الأساسية التي يأثم بتضييعها، ولكن النهضة إلى فضائل الأعمال وعظائمِ المجاهدات، إنما تنبعث من أسباب شدَّةِ حبِّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والرغبةِ في شكره ومرضاته، ورجاء فضله العظيم؛ فالمسلم إذا كان دائمَ القيام والسجود، لسانُه رطبٌ بتمجيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وذهنُه حاضرٌ بذكره، وبدنُه خاضعٌ بالخشوع له؛ كان موصولاً بربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأعقبَهُ ذلك القربُ محبةً لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ورغبةً في مزيدٍ من القربات، فتهون عليه المشاقُّ في سبيل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فيتحرَّك لكلِّ عملٍ صالحٍ ويسابِقُ إلى كلِّ فضيلة ممَّا جعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ زلفى وسبباً لمرضاته.

والعبد الذي يَعرِفُ أَنعُمَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليه فيقوم لربِّه بالصلاة حامداً شاكراً، يُصبِح من عهده في حياته كلِّها أن يسعى ويجدَّ له؛ يؤدِّي بعضَ واجبات الشكر لتلك النعم التي لا يحصيها العدُّ ولا يفي بها اجتهاد البشر.

والمصلِّي الذي يرجو رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويزداد إيمانًا ببُشرَياتِه ودعوته الصادقة بأن يجزيَ العاملين أحسنَ الجزاء،

ويضاعف لهم الحسنات ولا يظلمهم مثقالَ ذرَّة؛ يتحرَّك غيرَ مُبالٍ بالمشقَّة لينالَ أكملَ الإحسان طَمَعاً في نعيمٍ وجنَّةٍ خالدة.

وإذا أيقنَ الإنسانُ بالغيب وصدَّق بوعد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فإنَّ إنتاجَه وخيرَه في الحياة لا يكاد يتوقَّف عند حدٍّ، لأنَّ الرجاءَ الأكيدَ يبعث في النفس الطاقاتِ الكامنة، ويحشد الإمكانات المعطَّلة، فيتفجَّر ذلك مجهوداتٍ هائلةً تصنع في التاريخ عَجَباً.

وإنما يكسلُ ويعجزُ ويجبُنُ الذي لا يؤمن بجزاءٍ غير الأجرِ العاجل في الدنيا، وهو أجرٌ زهيدٌ، قوامُه شيءٌ من حظوظ المادّة أو الذكر الطيّب، بل قليلاً ما يكون أجرُ الدنيا عدلاً وافياً بالعمل الصالح، وكثيراً ما يتخلف ويخيب الرجاء فيه، لا سيما وأنَّ المجال في النظام الجزائيِّ الدنيوي أفسحُ للعقاب الرادع عن السوءِ منه للأجرِ الدافعِ للخير، ومعاني التضحية والفداء التي تدفع الناسَ أحياناً للعمل لا تبلغُ إلا قليلاً من قوَّة الدوافع المتعلِّقة برجاء الدار الآخرة وأجرها الثابت المضاعَف ونعيمها الخالد.

وتتبارك وتتَّصِلُ الجهود الضخمةُ التي تولدها البواعثُ الروحية عند المصلي، لأنَّه يتعلَّم من وحدةِ القبلة أن يوجِّهَ عمله كلَّه لغايةٍ معيَّنةٍ، ولا يتقلَّب أو يتخبَّط فيصبح اندفاعه قوةً رعناء مبددة، بل يتقدَّم في نهضته بانتظامٍ، ولا ينحرف عن أهدافه ولا يتحوَّلُ إلا زلَّةً يستدركها بالإنابةِ العاجلة إلى الصراط المستقيم.

ويزكي الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ المصلي عملَه بما يكثر من الدعاء في صلاته ويتوطَّد أملُه في استجابة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وثقته في توفيقه، فيطرحُ عن نفسِه التردُّدَ والارتيابَ، وتزيده تلك الطمأنينةُ إقبالاً على سعيه واندفاعـًا في جهاده وتوكله على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وفضلاً عن معاني الإيمان الفعَّالة التي تحييها سائرُ أفعال الصلاة وأقوالها؛ فإنَّ القرآن المقروء فيها يدعو لصالح الأعمال؛ لأنَّه يوجِّهُ المسلمَ لكلِّ صنوفها ودرجاتها، ويقصُّ عليه خبرَ النبيِّين والصدِّيقين والشهداء الذين جاهدوا في الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ حقَّ جهاده، ويرسخ في نفسه قواعدَ الإيمان والتوكل.

وذِكرُ الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يضع نصبَ عين المسلم المصلِّي قدوتَه الحسنة في الجهاد والصبر، ويزيده تعلُّقـًا بهديه وتوجيهاته البالغة واعتصامـًا بسنَّته الرشيدة.

والصلاة بتواليها ودوامها تضمنُ مدداً روحيـًا لا ينقطع عن المسلِم، بل يتزايد باطرادٍ، مجدِّداً إيمانَه بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وكتابه ورسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ومقويـًا خشيتَه وتقواه وشكرَه وثقتَه ورجاءه، ومضاعفـًا بذلك جهودَه الصالحة في سبيل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فكلما استهلَكَتِ المسلمَ تكاليفُ الحياة أسعفته الصلاةُ بشحنةٍ من الطاقة الروحية تمدُّ له في مسعاه مداً.

ومن أجل هذه الآثار الجليلة للصلاة في تثبيت إيمان المسلم وتوكُّله، وتنميةِ جِدِّه واستعداده للبذل والعطاء والمجاهدة، ومجاهدةِ المشقَّات والصعاب؛ **أرشد** القرآنُ إلى الاستعانة بالصلاة على ما يقع من الابتلاء أو يتعيَّن من الجهاد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتُۢۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾[البقرة: ١٥٣ - ١٥٧].

وكان من تربيةِ الله -جلّ شأنه- للرسول ﷺ وإعداده لاحتمال أعباءِ الرسالة الثقيلة، أن فرض عليه قيامَ الليل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[المزمل: ١ - ٥]. وتكرَّرت آياتُ القرآن للرسول توصِيه بالصلاة تسليةً عمَّا يَلقَى من الأذى في دعوته وجهاده، وتثبِّتُه في وجه الفتنة: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾[طه: ١٣٠]، ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾[الحجر: ٩٧ - ٩٩]، ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾[الإنسان: ٢٤ - ٢٦].

ولذلك كان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا حَزَبَهُ أمرٌ فَزِعَ إلى الصَّلاة[1]، ونادى: «**أرحنا بالصلاة يا بلال**» يَسْتَرِوحُ من ضِيقِ الدنيا بقُربِ الله وسعةِ رحمته.

وكما وَجَدَ في الإسراء والمعراج عزاءً بمرضاة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنه حينما نَبَذَه قومُه؛ شُرِعَتْ له الصلاة يومئذٍ؛ لتكون له كالمعراج الدائم والقربى المتوالية يفزع إليها كلَّما ضاقَ، وينعم منها بصفاءٍ روحيٍّ يعزِّيه عن كدورات الحياة، وبأُنسٍ ربَّانيٍّ يسلِّيه عن وحشاتها.

والإنسان إذا وَكَلَ نفسَه لهواه ولم يعتصم بحبلٍ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ عرضةٌ لِأن تُزعزِعَه تصاريفُ الحياة وتقلباتُ

---

(١) رواه أحمد في المسند، مسند أهل البيت -رضوان الله عليهم أجمعين-، حديث عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حديث رقم ١٧٦٢، من حديث عبد الله بن جعفر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إسناده حسن، انظر مسند الإمام أحمد بن حنبل، شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي الناشر: مؤسسة الرسالة، ط١(١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م)، ج٣، ص٢٨٦

الظروف، أمَّا إذا قويت صلتُه بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالصلاة، فإنَّ عينَه تقرُّ ونفسَه تطمئنُّ ويثبت على رُشدِه لا تطيحُ به سرّاءٌ ولا ضرّاء: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾[المعارج: ١٩ - ٢٣].

فالصلاة عونٌ للمسلم على المصابرة والمجاهدة في كلِّ ظروفِه، وتجاه كلِّ ضروب الابتلاء، ولذلك كانت الصلاةُ توجيهاً مفروضاً على المسلمين في عهد الصبر على الاضطهاد في مكَّة، وهم قلَّة مستضعفون.

وملازمة الصلاةِ آنذاك إعدادٌ لأفراد المسلمين بالقوَّة الروحيَّة بين يدي مرحلة الجهاد، وتوثيقٌ لوشائجِ الموالاة والتضامُن بينهم؛ استعداداً لمواجهة الجبهة الكافرة، وتثبيتٌ من أن تستحفُّهم الفتنة: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾[النساء: ٧٧]. ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[هود: ١١٢ - ١١٥]، وكان ذلك

التوجيهُ هو ما وصّى به الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قومَ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وقد اشتدَّت عليهم وطأةُ طغيان فرعون: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٨٣ - ٨٧].

وفي مستهلِّ عهد المسلمين بالمدينة جاءتهم الوصية بالصبر على مكايدات أهل الكتاب مقرونةً بالوصيَّة بالصلاة: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة: ١٠٩ - ١١٠].

ولما عزَّ المسلمون في المدينة ظلَّت الصلاة كتاباً مفروضاً عوناً على ظروف المرحلة الجديدة، فظروف قيام الدولة

تستوجب نهضةَ المسلمين للدفاع عنها، والصلاة خيرُ ما يعينهم على تبعات الجهاد: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ ﴾[البقرة: ١٥٣ - ١٥٤].

ولم تتخلَّف الصلاةُ حتّى في ساحات القتال، بل شُرِعَت كما شُرِع سائرُ ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عند الخوف؛ لأنها تَهَبُ قوَّةً وثباتًا وإقدامًا في ذلك الموقف الصعب.

وظروفُ النصر والعزِّ تعرض الإنسانَ لدواعي العلوِّ والفخرِ والإعجاب بالنفس، والصلاة خيرُ ما يُسعِفُه بموجبات التقوى ليكسرَ بها نشوةَ التكبُّرِ ويجاهدَ بها نزعةَ العدوان، والغالب المنتصِر قد يرضى عن منجزاته فيعقد عن المزيد، أو قد تطغى قوتُه المادية الظافرة على ضوابطه الأخلاقية، ويستبدُّ به سلطانُه فيجعله جباراً يعيث في الأرض فساداً، إلا الذين يخشون مالكَ الملك الكبير المتعال، المؤمنين أنَّ استخلافَهم في السلطة ابتلاءٌ من الله عَزَّوَجَلَّ طاعته فيه شكر، وعصيانُه كفرٌ وظلمٌ وفسوق.

ومن أجل تثبيت هذه المعاني شُرِعَتْ الصلاة وشُرِعَ الذكرُ عامَّةً في هذه الأحوال: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ

﴿ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١]، ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ١-٣] وقد صلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثماني ركعات لدى فتح مكة[١]، ومضى فعله ذلك سنَّةً للفاتحين المسلمين.

وخلاصة القول: إنَّ الصلاة قربى يستمدُّ منها المسلمُ قوَّة إيمانٍ لا يشقُّ عليه بعدها جهادٌ، ولا يبالي بما يلاقي من عناءٍ في سبيل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، سوى أنَّ حظَّ المصلي من صلاته ذلك بقدر ما يحسنها، فإن أقامها قانتًا خاشعًا أورثته عزمًا ماضيًا وبأسًا شديداً، وإن سها عنها ولها[٢] فيها لم يَجدْ من ذلك في نفسه إلا قليلاً.

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التهجد، باب الضحى في السفر، حديث ١١٧٦، من حديث أم هاني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) لها: من اللهو.

صَلاةُ الجَماعة تربيةٌ اجتماعيَّةٌ كامِلة

صلاة الجماعة من السنن التي شُرِعتْ شرعًا مؤكّداً، ولازمت المجتمع الإسلاميَّ فأصبحت من مظاهره البارزة، وقد رغَّبَ فيها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :«**صلاة الجماعة أفضلُ من صلاة الفَذِّ بسبعٍ وعشرين درجة**»(١)، وشدَّد على تاركها النكير: «**لقد هممتُ أنْ آمُرَ رجلاً يصلِّي بالناس ثمَّ أخالفَ إلى رجالٍ يتخلفون عنها فآمر بهم فيحرقوا عليهم بحزمِ الخطب**»(٢).

وهي سنَّةٌ مؤكَّدةٌ، ولعلها فرضٌ على كفايةٍ، ينبغي ألَّا تضيعها جماعةٌ من المسلمين: «**ما من ثلاثةٍ في قريةٍ ولا بدوٍ ولا تقام فيها الصلاة إلّا وقد استحوذَ عليهم الشيطان، فعليكم بالجماعة فإنما يأكل الذئبُ من الغنم القاصية**»(٣).

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب فضل صلاة الجماعة، حديث ٦٤٥، من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاة الجماعة، وبيان التشديد في التخلف عنها، حديث رقم ٦٥١، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) رواه أبو داوود في سننه، كتاب الصلاة، باب التشديد في ترك الجماعة، حديث رقم ٥٤٧، من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حديث حسن، انظر سنن أبي داوود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ج١، ص ١٥٠.

ومن الجماعة صلاة الجمعة، إذا نودي لها وَجَبَ على المسلم أن يتهيَّأَ ويسعى إليها، ثم ينصت لخطبتها ويؤديها مراعيًا آدابها المسنونة، وقد زجر النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن تركها فقال: «**ولينتهينَّ أقوامٌ عن وَدْعِهِم الجمعاتِ أو ليختمنَّ الله على قلوبهم ثم ليكونُنَّ من الغافلين**»(١).

ومن الصلوات الجامعة الحافلة صلاة العيدين، من السُّنَّة أن يخرج إليهما المسلمون جميعًا كما روت أُمُّ عطيَّة عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «أمرنا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن نُخرِجَ في العيدين العواتِقَ وذواتِ الخدور، وأَمَرَ الحُيَّضَ أن يعتزلن مصلَّى الناس»(٢).

ويجتمع المسلمون كذلك على صلاة الجنازة والكسوف والاستسقاء.

ويستحبُّ في ذلك كلِّه الجمع الأكثرُ تعميمًا لفائدة الجماعة: «**إنَّ صلاةَ الرجلِ مع الرجل أزكى من صلاته وحدَه، وصلاته مع**

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب التغليظ في ترك الجمعة، حديث رقم ٨٦٥، من حديث عبد الله بن عمر و أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة العيدين، باب ذكر إباحة خروج النساء في العيدين إلى المصلى وشهود الخطبة، مفارقات للرجال، حديث رقم ٨٩٠، من حديث أم عطية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

الرجلين أزكى من صلاته مع الرجل، وما كَثُرَ فهو أحبُّ إلى الله تعالى»[1].

وإن كان هذا هو مكان الصلاة الجامعة وفضلُها في الإسلام، فإنَّما ذلك لأنَّها طاعةٌ جليلةٌ يخلف الله -جلّ وعلا- عنها في الآخرة أجراً زائداً، وتُحدِثُ كذلك آثاراً هامَّةً في حياة المجتمع الإسلامي.

ولنحاول بعداً أن نتأمَّل طائفةً من آثارها التربويَّة النافعة، لنقفَ على بعض الحكمة البالغة في مشروعيتها.

والوعيُ بهذه المعاني يزيدُ المسلمَ إقبالاً عليها وانتفاعاً بها، وإن كانت آثارُها الجماعة تحدث في حياته حتى لو لم يفقه من

(١) رواه أبو داوود في سننه، كتاب الصلاة، باب في فضل صلاة الجماعة، حديث رقم ٥٥٤، من حديث أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حديث حسن صحيح. ذكره ابن حبان في "الثقات" وقد تابعه أبوه أبو بصير العنبري الكوفي، وقد روى عنه ثلاثة وذكره ابن حبان في "الثقات"، وباقي رجاله ثقات، وقال شعبة في روايته: قال أبو إسحاق: قد سمعته من عبد الله بن أبي بصير ومن أبيه، عن أبي بن كعب وقد حكم على هذا الحديث بالصحة أئمة الحديث: يحيي بن معين وعلي ابن المديني، ومحمد بن يحيي الذهلي وغيرهم كما فى المستدرك ٢٤٩/ ١، ونقله عنه ابن الملقن في "البدر المنير" ٤/ ٣٨٣ - ٣٨٤ ونقل تصحيحه أيضا عن العقيلي، وانتهى هو إلى تصحيحه.

معناها إلا أنَّها تكليفٌ مسنونٌ يؤدِّيه طاعةً لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ واتباعاً لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تقاةً العذاب ورجاءً الثواب في دار الجزاء.

١ - تضامن الجماعة ووحدتها:

إذا نودي للصلاة أمَّ المسلمون المسجدَ من كلِّ ناحيةٍ أو تجمعوا حيث اتفق لهم، فإذا أقيمت الصلاة قاموا متراصِّين صفوفاً من وراء الإمام، والسنَّة أن تستوي الصفوفُ ويلتصقَ المصلون: عن ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يمسح بمناكبنا ويقول: «**استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم**»(١)، «**أقيموا الصفوفَ، واحذوا بين المناكب، وسدُّوا الخللَ ولينوا بأيدي إخوانكم، ولا تذروا فُرُجاتٍ للشيطان، ومَن وَصَلَ صفّاً وَصَلَهُ الله ومَن قَطَعَ صفّاً قطعه الله**»(٢). وإذا كان تمام الصفوف وتراصُّها من كمال الصلاة فلا

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة الصلاة، باب تسوية الصفوف، وإقامتها، وفضل الأول فالأول منها، والازدحام على الصف الأول، والمسابقة إليها، وتقديم أولي الفضل، وتقريبهم من الإمام، حديث رقم ٤٣٢، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه أبو داوود في سننه، كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف، حديث رقم ٦٦٦، من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إسناده صحيح، انظر سنن أب داوود، تحقيق الأرناؤوط، دار الرسالة العالمية،ط١ (١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م)،ج٢، ص٨.

ينبغي للمسلم أن يشذَّ عنها؛ فقد روي أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى رجلاً يصلِّي خلف الصفِّ وحدَه فأمره أن يعيد»[1].

ولا تعتزل النساءُ جماعة المسلمين، وليس لأوليائهنَّ أن يمنعوهن الخروج إلى المسجد تنطعاً وفرطَ حذرٍ: «**لا تمنعوا إماء الله مساجد الله**»[2]، وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تمنعوا النساءَ من الخروج إلى المساجد بالليل**»، فقال ابنٌ لابن عمر: لا ندعهنَّ يخرجنَ فيتخذْنَه دغلاً. فزَبَرَهُ ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقال: أقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتقول: لا ندعهنَّ»[3].

ولما كانت المساجدُ هي المراكز الروحيّة الجامعة فقد دعا الدِّينُ لبنائها وعمرانها وتطهيرها: ﴿ **وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ**

(١) رواه أبو داوود في سننه، كتاب الصلاة، باب الرجل يصلي وحده خلف الصف، حديث رقم ٦٨٢، من حديث واصبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، حديث صحيح، انظر سنن أب داوود، تحقيق الأرناؤوط، دار الرسالة العالمية، ط١ (١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م)، ج٢، ص١٨-١٩.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب خروج النساء إلى المساجد إذا لم يترتب عليه فتنة، وأنها لا تخرج مطيبة، حديث رقم ٤٤٢، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) نفس تخريج الحديث السابق.

وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾[البقرة: ١٢٥]، ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾[التوبة: ١٨]، **«مَن بَنَى مَسجِداً يبتغي به وجهَ الله بَنى الله له مثلَه في الجنَّة»**(١).

وجعلت للمساجد آدابٌ تحفظ للذين يؤمُّونها وقارَ الاجتماع، ونظافةَ المكان وطهارتَه، وتمنع الأذى والتشويش:

- **«مَن أَكَلَ من هذه البقلة (الثوم) فلا يقربنَّ مساجدنا حتى يذهبَ ريُحها»**(٢).

- **«مَن سمع رجلاً ينشد ضالَّةً في المسجد فليقل: لا ردَّها الله عليك؛ فإنَّ المساجد لم تُبْنَ لهذا»**(٣).

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب من بنى مسجداً، حديث ٤٥٠، من حديث عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب ما جاء في الثوم النيء والبصل والكراث، حديث ٨٥٠، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، و أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب نهي من أكل ثوما أو بصلا، حديث رقم ٥٦١، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، واللفظ لمسلم.

(٣) رواه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي =

- «إذا رأيتم مَن يبيع أو يبتاعُ في المسجد فقولوا له: لا أربحَ الله تجارتك»[1].

- «إنَّ هذه المساجدَ لا تصلح لشيءٍ من هذا البول ولا القَذَر، إنَّمَا هي لذكر الله وقراءة القرآن»[2].

وعني الدينُ بتوفير الحريَّة الدينيَّة في المساجد لتسلمَ لوظيفتها مسرحًا للصلاة والذكرِ، فأخزى اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كلَّ مَن صَدَّ عنها أو سعى في خرابها: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[البقرة: ١١٤]، وشرع الجهادَ في سبيل الله

= عن نشد الضالة في المسجد وما يقوله من سمع الناشد، حديث رقم ٥٦٨، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(١) رواه الترمذي في السنن، أبواب البيوع، باب النهي عن البيع في المسجد، حديث رقم ١٣٢١، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حديث حسن غريب، انظر سنن الترمذ، تحقيق، بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ط (١٩٩٨م)، ج٢، ص ٦٠٢.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت في المسجد، وأن الأرض تطهر بالماء، من غير حاجة إلى حفرها، حديث رقم ٢٨٥، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لحمايةِ دورِ العبادة من أجلِ الشعيرة العظيمة التي تؤدَّى فيها: ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾[الحج: ٤٠ - ٤١].

وواضحٌ أنَّ لصلاة الجماعة أثراً بالغاً في تربية المسلمين على التضامن والوحدة، فهي تهديهم بتواليها في اليوم الواحد إلى الاجتماع على كلِّ أمرٍ يهمُّهم، والتعاون على تدبير شؤونهم كافَّة، وهي تعلِّمُهم بتراصِّ الصفوف أن تكون مواقفهم في الحياة جميعاً كذلك، يقومون فيها صفّاً واحداً لا يتفرقون في دينهم شيعاً وأحزاباً، كلُّ حزبٍ بما لديهم فَرِحون، بل إنَّ في تقارب المصلِّين في الصفِّ وتلاصقهم بالمناكب والأقدام ما يوثِّق بينهم ذاتَ البَين، فالناس قد يتمايزون في المعاش والسكن، وتجعلُهم فوارقُ الحياة والثروة طبقاتٍ متباينة، ولكنَّ الصلاةَ تؤدِّب المسلمين ألَّا يتجافى الغنيُّ عن الفقير، ولا يتباعد ذو الثوبِ الحسن عن رَثِّ الهيئةِ، بل تتقارب أنفاسُهم وتلتصق أطرافُهم لتعمر بينهم العلائق وتتوطَّد الصلات.

فالصفُّ يشير إلى أنَّ المسلمين أمَّـةٌ واحـدةٌ، والتداني بالأجسام يذكرهم بتدانيهم في اعتبار العقيدة والـروح، ويدعوهم إلى أن يحفظوا ذلك الحال في كلِّ شأنٍ أو زمان، ولا يجوز المسلم أن يشذَّ عن الجماعة كما لا يشذَّ عن صفِّ الصلاة، ولا تنعزل النساءُ بعالمٍ منفصلٍ يتقوقعن فيها ويتخلَّفن عن ركب الجماعة.

ولما كان المسجد هو الإطار الذي يضمُّ صفوفَ المسلمين في صلاة الجماعة؛ كان الأجدرُ أن يكون مسجداً جامعـًا، وأن تتَّحد الجماعة وألّا تتفرّقَ المساجد بتفرُّق الأهواء والعصبيات، ولذلك كره من الفقهاء مَن كره صلاةَ الجمعة من غير مَسجِدِ المسلمين الجامع.

والشذوذ بمسجدٍ منفصلٍ دون حاجةٍ تدعو إليه من ضيقِ المساجد أو بُعدها يُشبِهُ موقفَ المصلِّي الشاذ خلفَ الصفِّ، وقد يكون - بنيَّة الـذي يتخذه- مسجدَ ضـرارٍ وتفريقٍ بين المؤمنين: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧].

والصلة الوثيقة بين صلاة الجماعة وبين معنى التضامن بين المسلمين تتَّضح في شمول وظيفة المسجد، فقد كان في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُصَلّى للمسلمين، وكان كذلك قاعدةً لتصريف كثيرٍ من شؤونهم الاجتماعية سوى ما يدعو للصَّخب ورفع الأصوات، فقد كان داراً لإدارة الأمر العام، فيه يجري القضاءُ وتُقسَمُ أنصبَةُ العطاء الاجتماعيّ كما كان ناديًا للمسلمين، ومسرحًا لكثيرٍ من وجوه الحياة العامّة.

ولما كانت صلاةُ الجماعة بتواليها هي عمادُ التضامن الاجتماعي للمسلمين، وكان المسجد هو قاعدتها، كان أوَّل همِّ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لدى وصوله المدينة أن يؤسِّسَ مسجداً يكون قاعدةً للوحدة التعبديّة، ثمَّ منطلقًا للوحدة الشاملة بين المسلمين، فلمّا تم بناؤه انصرف النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى بناء الرابطة الاجتماعية بالمؤاخاة بين أفراد المهاجرين والأنصار، التي كانت دستوراً لدولة المدينة.

وتتَّصل آثارُ صلاة الجماعة المتقدِّمة بكثيرٍ من توجيهات الدين عامّةً في شأن الجماعة: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ**﴾[الأنعام: ١٥٩]، «**مَن فارق الجماعة شبرا، فمات،**

فميتة جاهليَّة»[1]، ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[التوبة: ٧١].

وفي تلاقي المسلمين على الصلاة خيرٌ كثيرٌ؛ يتعارفون بينهم ويتآلفون، ويقف بعضُهم على أحوال بعض، فيتجاوبون بالودِّ والتراحم، ويصبحون بفضل الصلاة إخوانًا متَّحدين في بناءٍ اجتماعيٍّ متين لا توهنه القطيعة والانعزال، وتسود بينهم مظاهرُ الوحدة التي وصفها النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ قال: «**تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، كَمَثَلِ الجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالحُمَّى**»[2].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الفتن، باب قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سترون بعدي أمورا تنكرونها، حديث ٧٠٥٤، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلى الكفر، حديث رقم ١٨٤٩، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، واللفظ لمسلم.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، حديث ٦٠١١، من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورواه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، حديث رقم ٢٥٨٦، من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، واللفظ للبخاري.

ولا عجب بعد ما قدَّمنا أن نلاحظَ ارتباطَ معنى التضامنِ والولاء بين المسلمين بإقام الصلاة لأنها مظهرٌ له وعاملٌ في تأكيده: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٥ - ٥٦]. ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[الروم: ٣١ - ٣٢].

وفي صلاة الجماعة كثيرٌ من ملامح التنظيم والوحدة التي تقترن بأوضاع القتال في سبيل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ففيها مظهرُ الحشر والحشد، ومظهر الإمامة والاتباع الدقيق، وفيها كذلك التراصُّ في الصفوف، وسدُّ الثغرات، والتقدم إلى الصف الأول فالأول، وكذلك شأن القتال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾[الصف: ٤].

١ - الاستجابة للدعوة الجامعة:

كان المسلمون حين قدموا المدينةَ يجتمعون فيتحينون الصلاةَ ليس ينادى لها، فاهتمَّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كيف يجمع الناسَ لها، فقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنصب رايةً عند حضور وقت

الصلاة، فإذا رأوها آذن بعضُهم بعضاً؛ فلم يُعجِبْه»[1]، وتكلَّمُوا في ذلك فقال بعضهم: اتخذوا ناقوساً مثل ناقوس النصارى. وقال بعضهم» بل بُوقاً مثل بُوقِ اليهود. وذكروا النارَ والناقوس»[2]، ثمَّ اهتدوا أخيراً إلى الأذان ينادي به بلال.

هكذا شُرِعَ الأذانُ فقرَّر النبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فضلَ التأذين وأجرَ الداعي إلى الصلاة: «**المؤذِّنون أطولُ الناسِ أعناقاً يوم القيامة**»[3]. «**إنَّه لا يسمع صوتَ المؤذِّن جنٌّ ولا إنسٌ ولا شيءٌ إلَّا شَهِدَ له يوم القيامة**»[4].

---

(١) رواه أبو داوود في سننه، كتاب الصلاة، باب بدء الأذان، حديث رقم ٤٩٨، من حديث أب عمير بن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، إسناده صحيح، انظر سنن أب داوود، تحقيق الأرناؤوط، دار الرسالة العالمية، ط١ (١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م)، ج١، ص٣٧٠.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب بدء الأذان، حديث ٦٠٢، من حديث ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

(٣) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه، حديث رقم ٣٨٧، من حديث معاوية بن أبي سفيان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٤) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب ما يقول إذا سمع المنادي، حديث ٦١١، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه، حديث رقم ٣٨٣، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

ونَدَبَ الذي يسمع هذه الدعوةَ التامَّة للصلاة أن يجاوب المؤذِّنَ بمثل ما يقول، كأنما هو رجع الصدى للنداء: «**إذا سمعتم النداء فقولوا مثل ما يقول المؤذِّن**»[1].

وينبغي على المسلم حين يسمع نداءَ الصلاة أن يلبِّيَه مهما كان حرج الوقت من الليل أو النهار: «لو **يعلم الناسُ ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلَّا ان يستهموا عليه لاستهموا عليه، ولو يعلمون ما في التهجير لاستبقوا إليه، ولو يعلمون ما في العتمة والصبح لأتوهما ولو حبواً**»[2].

وعليه أن يجيب مهما عرضت الأعذار: «**بشِّرُوا المشَّائين في الظُّلَمِ إلى المساجد بالنور التامِّ يوم القيامة**»[3].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب فضل التهجير إلى الظهر، حديث ٦٥٤، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، اب بيان الشهداء. وفي البر والصلة باب فضل إزالة الأذى عن الطريق رقم ١٩١٤.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه أبو داوود في سننه، كتاب الصلاة، باب ما جاء في المشي إلى الصلاة في الظّلم، حديث رقم ٥٦١، من حديث بريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حسن لغيره، انظر سنن أب داوود، تحقيق الأرناؤوط، دار الرسالة العالمية، ط١ (١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م)، ج١، ص٤٢١.

وقد استأذن ابنُ أمِّ مكتوم رسولَ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنَّ المدينةَ كثيرةُ الهوامِّ والسباع، فقال الرسول: «**تَسمَعُ حيَّ على الصلاة حيَّ على الفلاح فحَيَّهَلاً**»(١).

واعتذر رجلٌ أعمى أنَّه لا يجد قائداً إلى الصلاة فرخَّص له النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في التخلُّفِ عن الجماعة، ثمَّ لما ولَّى دعاه فقال: «**تسمع النداءَ للصلاة؟**»، فقال: نعم. قال: «**فأجِبْه**»(٢).

وأعظم الناس أجراً هو الذي يلبِّي الدعوةَ من أبعد المسافات، والذي يسبِقُ إلى الحضور: «**إنَّ أعظمَ الناسِ أجراً في الصلاة أبعدُهم إليها مَمْشًى فأبعدهم**»(٣)، «**إذا كان يوم الجمعة وقفت الملائكةُ على باب المسجد يكتبون الأوّلَ فالأول**»(٤).

---

(١) رواه أبو داوود في سننه، كتاب الصلاة، باب في فضل صلاة الجماعة، حديث رقم ٥٥٣، من حديث ابن أم مكتوم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، إسناده منقطع، انظر سنن أب داوود، تحقيق الأرناؤوط، دار الرسالة العالمية،ط١ (١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م)،ج١، ص٤١٥.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل كثرة الخطا إلى المساجد، حديث رقم ٦٦٢، من حديث أبي موسى رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب الاستماع إلى الخطبة، حديث ٩٢٩، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وفضلاً عمَّا في أعمال التأذين والإجابة من عبادةٍ وأجرٍ عظيمٍ؛ فإنَّها تشتمل على معانٍ أخرى فيها تربيةٌ للمسلمين على رفع كلمة الإسلام، وإظهارِ الدعوة إليه، وعلى الاستجابة الناجزة لنداء الإسلام.

فليس الأذانُ مجرَّدَ إعلامٍ بحضور وقتِ الصلاة ودعاءٍ إلى جماعتها، ولكنه كذلك إظهارٌ لشعار الإسلام؛ فصوت الأذان الذي يشقُّ عنانَ السماءِ فيسمع من بعيد إنَّما يُنبِئُ بأنَّ البلدة التي يدوي فيها مؤسَّسَةٌ على ركنٍ من الإسلام، قائمةٌ بشعائره، وقد تقدَّم أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يتَّخذه آيةً على الإسلام، فإذا سمع الأذان كفَّ عنهم وإلا أغار[1].

وقد أصبح هذا الصوت الذي يجلجل في الآفاق مَظهراً إسلاميّاً هامّاً، كما أصبحت المآذن علماً على مدائن الإسلام إذا رآها الوافدُ إلى البلدة استأنس بها ووجد أمناً وسلاماً.

وقد هدى الله عَزَّوَجَلَّ المسلمين إلى أن يتَّخذوا صوتَ الإنسان داعيةً للصلاة لا رايةً أو ناراً، ولا صوتَ جرسٍ أو قرنٍ، وبذلك تميَّز المسلمون بمظهرٍ مستقلٍّ موافق لسائر هدي الدِّين في تجرُّد أهلِ الإسلام عن تقليد الآخرين في ملبسهم ومسلكهم ومَظهرهم كلِّه، بل في مذهبهم في الحياة جميعاً.

(١) البخاري. سبق تخريجه.

وأذانُ المسلمين ليس جماداً ظاهراً أو داوياً، وإنّما هو منطِقُ بَشَرٍ، وكلامٌ بيِّنٌ يُعلِن على الملأ شهادةَ الإسلام الأساسية بالله جَلَّوَعَلَا الواحد وبمحمَّدٍ الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ويُعلِي كلمةَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الكبير، وينادي جهاراً إلى الصلاة سببِ الفلاح.

ويتعلَّم المسلمون كثيراً من مجاوبة الأذان بمثلِ ما يقول، وتلبيةِ دعوتِه برغم عوائقِ البُعد والظلام؛ يتعلَّمون أن يلبُّوا داعيَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مهما تجاذَبَتْهم دواعي اللهوِ والهوى والمصلحة العاجلة.

ويتصل هذا المعنى بما تقدَّم في شأن التزام القبلةِ والقنوتِ تجرُّداً لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وعدمِ الالتفات أو الالتهاءِ عن أمر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بأمر الدنيا.

فجملة الأثر التي تُحدثه هذه المعاني في الصلاة أن تكَوِّنَ من المسلمين رجالاً يقدمون حقَّ الله عَزَّوَجَلَّ على كلِّ حقٍّ، ويقدرون خشيته ورجاءه فوق كلِّ اعتبار أو حساب: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [النور: ٣٦ - ٣٨].

وإنَّ أعظمَ ابتلاء للإنسان أن يكون غارقًا في همِّ دنياه ولهوها، تحيطُ به زِينَتُها الطاغية، وتكاد تحتكرُ كلَّ حواسه ومشاعره، فيطرق سمعه مرات في كلِّ يومٍ، وفي غمار تلك المشاغل صوتٌ يذكِّرُه بالتجرد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الواحد الكبير، ويدعوه إلى أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وسنَّة رسولِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويحرِّضُه على تجاوز رغائب الدنيا والإقبالِ على فلاح الخلود.

ولئن تثاقل المسلمُ عن تلبية نداء الجماعة في الصلاة الراتبة؛ فهو فرضٌ عليه ألَّا ينخذل يومَ الجمعة عن موكب المجيبين لنداء الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[الجمعة: ٩ - ١١].

فالذين يجيبون الداعيَ للصلاة طارحين ملاهيهم ومنافعهم الدنيا فارِّين إلى مناجاة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تحدوهم تقواهُ والرغبة في فضله العميم؛ أولئك هم الذين يسارعون كلَّما دعا داعي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ويلبُّون كلَّ نداء العمل الصالح، ويهبُّون كلَّما أذَّن

مؤذِّنٌ لأداء الواجب طامعين في الفلاح الموعود غيرَ مبالين بِبُعد الطريق ومشقاتِه.

وكما يهرعُ المسلمون مجيبين مـؤذِّنَ الحجِّ آتين من كلِّ فج عميق نحو مركز واحد مخلفين أهلهم ومصالحهم ينطلق المصلون لدى الأذان يسعون إلى مركز العبادة من كل طريق، وكذلك يكون المسلم في كل حياته رهن دعوة الخير يهب مسارعـًا إلى حيثما يوجه الله -جلّ شأنه- ويهدي الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ليس أصـم مختومـًا على سمعه ولا قـاعـداً مع الخالفين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ ﴾[الأنفال: ٢٤].

وكلَّما بعُد المسلمون عن صراطهم المستقيم وتخلَّفُوا عن غاياتهم قامَ فيهم دعـاةُ الإصـلاح يـردِّدون صَيحات التجديد وندبات النهضة، فأقربُ المسلمين للإقبال والتلبية مَن اعتادوا مجاوَبَةَ الأذان، وأدناهم للإدبار والتولي تَرَكَةُ صلاةِ الجماعة ومضيِّعُوها؛ لأنَّ مَن لم يعهد إجابة النداء للصلاة الجامعة، ومَن اعتذر عنها ببُعد الدار وزحمة المشاغل؛ هو الذي قد يتخلَّف إذا نودي لأمرٍ جامع؛ مِن قلَّةِ همِّه بشؤون المسلمين العامة واستشعاره لتضامنهم ووحدتهم، ومن شُحِّه بنفسه وماله إذا وجب العطاءُ، وتعلُّلِهِ بالمعاذير إذا وجب البذل والإقدام.

وهذه الأمَّة التي يظهر فيها شعار الإسلام ويعلو هتافه، والتي ينادى فيها بالصلاة الجامعة فتلبَّى وتجيب، والتي لم يقعد بها وحل التقاليد الجاهلية، ولا قبضة الولاءات العصبية، ولم تصرفها نوازعُ الأهواء الوضعية، ولا دواعي المصلحة العاجلة من أن تستجيب لداعي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ولنداء رسوله الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ هذه الأمة جديرةٌ بأن تسمَّى «أمة الإجابة».

٢- المساواة بين المسلمين:

يقوم المسلمون في صفوفهم متراصِّين مستوين إجابة لسنَّةِ الرسول الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سوُّوا صفوفكم فإنَّ تسويةَ الصفِّ من تمام الصلاة**»[(١)]، ويتقاربون في قيامهم حتى تلتقي المناكبُ والأقدام، ويأخذ السابقون موضِعَهم من الصفِّ الأول فالأول، وليس لمتأخِّرٍ أن يعمد إلى الصفوف فيتخطَّى الرقابَ ليتصدر الناس: جاء رجلٌ يتخطَّى رقابَ الناس، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخطب بوم الجمعة، فقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اجلس فقد آذيت**»[(٢)]، ولا يجوز للمرء في الصلاة - أو في غيرها - أن يقيمَ

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه أبو داوود في سننه، كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف، حديث رقم ٦٦٨، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إسناده صحيح، =

الرجلَ من مقعده ويجلس فيه[1].

وهـذه الآداب في لقاء المسلمين على الصلاة الجامعة تشيع بينهم المساواة فلا يجنح منهم أحـدٌ للتميُّزِ عن مقام سائر المسلمين بمكانٍ مستقلٍّ بارزٍ كِبْراً واستنكافـًا عن وضع إخوانه، ولا يتجافى غنيٌّ عن فقير، ولا وجيهٌ عن وضيع، بل يتجاورون ويتقاربون ويستشعرون تماثلهم ويطرحون الفوارقَ بينهم، ويقومون في أوضاع الحياة جميعـًا متساوين كأسنان المشط الواحد.

ويتعلَّم المسلمون التساوي في الفرص والحقوقِ الأساسية، فلا ينزع القويُّ حقَّ الضعيف ظلمـًا ولا يتعدَّى على الآخرين ليفوزَ بامتيازٍ لا يؤهله له كسبُه المشروع.

وليست المساواة وضعـًا سلبيـًا يضع القسطَ ويمنع التظلُّمَ والاستكبار والتفرقة؛ ولكنَّها كذلك - وبفضل الصلاة - استشعارٌ لوحدةِ الأصل والمبتدأ، ولوحدةِ المذهب والطريق، ولوحدة الغاية والمنتهى، واستحقارٌ لفوارق النسبِ واللون

= انظر سـنن أب داوود، تحقيـق الأرنـاؤوط، دار الرسـالة العالميـة، ط١ (١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م)،ج٢، ص٩.

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب لَا يُقِيمُ الرَّجُلُ أَخَاهُ يَوْمَ الجُمُعَةِ وَيَقْعُدُ فِي مَكَانِهِ، حديث ٩١١، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

واللسان، ولحظوظِ المال والجاه، ولاختلافِ الرأيِ في غير الدين، وهي كذلك عاطفةُ ودٍّ وطيدٍ وإخاءٍ صادقٍ بين المسلمين تأتلف به النفوس وتنكَسِفُ الفوارقُ والخلافات.

٣- الإمامة:

صلاة الجماعة يقودها إمامٌ يتقدَّمُ الصفوف فيصلِّي ويصلي الناسُ بصلاته، ويتم اختيار الإمام بتوخِّي الفضل في القرآن والفقه والسبق: «**يؤمُّ القومَ أقرؤُهم لكتاب الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، **فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسُّنَّة، فإن كانوا في السنَّة سواء فأقدمهم هجرةً، فإن كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سلمًا (سنًا) ولا يؤمَّنَّ الرجلُ الرجلَ في سلطانه، ولا يقعد في بيته على تكرمته إلَّا بإذنه**»[1].

والحقُّ للمصلين في اختيار مَن يقدمونه للإمامة، ولأهل المسجد أن يختاروا إمامَهم الراتب، فإن اختلفوا وقع الأمر لمن يرشِّحُه جمهورهم الأغلب، وليس لامرئ أن يتصدَّى للإمامة على كرهٍ من المصلين: «**ثلاثةٌ لا تقبل منهم صلاةٌ: مَن**

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب من أحق بالإمامة، حديث رقم ٦٧٣، من حديث أبي مسعود الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تقدَّم قوماً وهم له كارهون...» [1] ، **«ثلاثة لا تجاوز صلاتُهم آذانَهم: ... وإمامُ قومٍ وهم له كارهون»** [2] .

فالإمامة ركنٌ في صلاة الجماعة، ويختار لها الإمامُ على أساسٍ من رضا المصلين، وليست منصباً دينيّاً يحتكر لطبقة من «رجال الدين»، وإنَّما هي وظيفةٌ يقوم بها أيُّ مسلمٍ، ويتوخَّى فيها استيفاء كفاءة معيَّنة يكون بها أَولى لأداء واجبات قيادة الصلاة.

ومبدأ الإمامة هذا إنما يوحي للمسلمين في شأنهم كلِّه وجوبَ إقامة إمامٍ أو اتخاذ قيادةٍ إسلامية تتولى تنظيمَ صفوف المسلمين، وتسويتها ورعاية وحدتهم وسدَّ الثغرات بينهم، وتتعهدهم بالتوجيه والنصح - كما يفعل الخطيبُ في الجمعة- وتكون لهم قدوة يتبعونها في القيام بطاعات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كلِّها.

(١) رواه أبو داوود في سننه، كتاب الصلاة، باب إمامة الأعمى، حديث رقم ٥٩٣، من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، إسناده ضعيف، انظر سنن أب داوود، تحقيق الأرناؤوط، دار الرسالة العالمية،ط١ (١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م)،ج١، ص٤٤٤.

(٢) رواه الترمذي في السنن، أبواب الصلاة، باب ما جاء فيمن أمّ قوما وهم له كارهون، حديث رقم ٣٦٠، من حديث أبي أمامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، حديث حسن، انظر السنن للترمذي، تحقيق د شاكر، ج٢، ص١٩٣.

فإذا ضيَّع المسلمون أمرَ الإمامة والقيادة في شؤونهم الاجتماعية أو السياسية أو الجهادية، فإنَّ أمرَهم العامَّ إلى الضياع، إذ تتعطل كلُّ الواجبات الكفائيَّة التي تقوم بها الجماعة، كردِّ المظالم وبسطِ العدالةِ وتطبيق الشريعة والجهاد في سبيل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا يبقى من الدين إلا الفروضُ العينية الفرديَّة، كما يصلي الأفذاذ من دون جماعةٍ وإمامة.

وقاعدة الاختيار لإمامةِ الصلاة هي قاعدةُ الاختيار للإمامةِ الكبرى، فلا مجال للوراثة فيها كما هو شأن الملوك، ولا التسلُّطِ والاستلاب كما هو شأن الجبابرة؛ وإنما يختار إمام المسلمين بالرضا والمشورةِ، فإذا اختلف عليه المسلمون كان الحقُّ لمن وقع عليه اختيار السواد الأعظم.

وليس مناطُ الاختيار هو الهوى والقرابة؛ وإنما هو توخِّي شروط الكفاءة للوظيفة التي سيضطلعُ بها الإمام أو القائد، فإن كانت الصلاةُ فهي إجادةُ القرآن وفقهُ السنَّةِ والسابقة في الدين، وإن كانت الإمامة الكبرى فهي القوة على أعبائها، وتقوى الله جَلَّ وَعَلَا في أمانتها. فإذا وقع الخيارُ على مسلمٍ لم يكن بعدها مجالٌ للمدافعة، وإنما يجب على الإمام المختار الإقدامُ على رعاية أمر المسلمين العامّ وتوحيدهم وإحاطتهم بنصحِه وحسنِ سياستهم وقيادتهم، ووجبت له عليهم الطاعة والاتباع.

وإمام المسلمين الأكبر محكومٌ في تصريفه الأمور بأحكام الشريعة دستوراً، ليس له أن يتجاوزه، ولا طاعةَ له فيما وراءه، إذ لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو ملزَمٌ بأن يراعي تجاه رعيَّته آدابًا معينة، منها أن يجتهد لهم وينصحَ، وألَّا يستأثر عليهم ولا يمتاز، ولا يشق أو يفرط أو يحملهم على ما لا يطيقون، أو يتكبر عليهم ويحتجب: «**ما من أميرٍ يلي أمرَ المسلمين ثمَّ لا يجتهد لهم وينصح لهم، إلَّا لم يدخل معهم الجنة**»(١). «**اللهمَّ مَن وَلِيَ مِن أمرِ أمَّتي شيئًا فشقَّ عليهم فاشقُقْ عليه، ومَن ولي من أمرِ أمَّتي شيئًا فرفق بهم فارفِقْ به**»(٢).

وصلاة الجماعة على ما فيها من العبادة والفضل تربيةٌ لأئمَّة المسلمين، وإشاعةٌ للأعراف الصالحة في مجال القيادة العامة؛ فإمام الصلاة مقيَّدٌ باتِّباع سنَّةِ الصلاة ليس له بحق الإمامة سلطةٌ في الابتداع، فهو لا ينتظر إذا تأخر عن إدراك الوقت المعهود

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، وعقوبة الجائر، والحث على الرفق بالرعية، والنهي عن إدخال المشقة عليهم، حديث رقم ١٤٢، من حديث معقل بن يسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، وعقوبة الجائر، والحث على الرفق بالرعية، والنهي عن إدخال المشقة عليهم، حديث رقم ١٨٢٨، من حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

للصلاة، بل يقدِّم المصلُّون مَن يصلي مكانه، وهكذا فعل الصحابة لما تأخَّر عليهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الخروج[1].

وهو كذلك لا يتابع على الزيادة في حدود الصلاة، وإنما يردُّ إلى الحقِّ بالتسبيح والتذكير، **ومن حقِّ المأمومين على الإمام:**

- ألا يعلو عليهم: «**إذا أم الرجل القوم فلا يقم في مقام أرفع من مقامهم**»[2].

- وألَّا يستأثرَ عليهم بدعاءٍ: «**ثلاثٌ لا يحلُّ لأحدٍ أن يفعلهنَّ، لا يؤمَّنَّ رجلٌ قومًا فيخص نفسَه بالدعاء دونهم، فإن فَعَلَ فقد خانهم...**»[3].

- وألا يطوِّل عليهم في الصلاة حتى يحرجَهم ويثقل عليهم، وذلك حدٌّ لازمٌ إذا تجاوزه اعتزلوه: «جاء رجلٌ إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: إنِّي لأتأخر عن صلاة الصبح من أجل فلانٍ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه أبو داوود في سننه، كتاب الصلاة، باب إمامة من صلى بقوم وقد صلى تلك الصلاة، حديث رقم ٥٩٨، من حديث حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إسناده ضعيف، انظر سنن أب داوود، تحقيق الأرناؤوط، دار الرسالة العالمية، ط١ (١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م)، ج١، ص٤٤٨.

(٣) سبق تخريجه.

ممَّا يطيل بنا؛ فما رأيتُ النبيَّ غضب في موعظةٍ قطُّ أشدَّ مما غضب يومئذٍ، فقال: «**يا أيها الناس إنَّ منكم منفِّرين، فأيُّكُم أمَّ بالناس فليوجِزْ؛ فإنَّ وراءه الكبير والضعيف وذا الحاجة**»(١)، وكذلك انحرف رجلٌ عن إمامةِ معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فصلَّى وحده لما رأى معاذاً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ افتتح بالبقرة، وشكا إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعاتب عليها معاذاً»(٢).

فصلاة الجماعة تربي المسلمين على العلاقات الرشيدة بين الإمام والمؤتمِّ، فإذا حفظوا تلك الصلاة ووالَوها استقرَّتْ أحكامُ تلك القيادة وآدابها في وجدانهم، وصلح بها شأنُهم كلُّه، تعبداً أو اجتماعاً أو سياسةً عامَّة، وحفظتهم صلاتُهم من الانحراف، وأمرتهم بالمعروف في ذلك كلِّه.

وتكاد تتَّفِقُ أحكامُ إمامة الصلاة، وأحكامُ الإمامة الكبرى في هديها العام وتفاصيلها، وذلك دليلٌ على تكامل هذا الدِّين

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام، حديث رقم ٤٦٦، من حديث أبي مسعود الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب إذا طول الإمام وكان للرجل حاجة فخرج فصلى، حديث ٧٠١، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب القراءة في العشاء، حديث رقم ٤٦٥.

واتساق أحكامِه في كلِّ جوانب الحياة؛ ذلك أنَّه من أصلٍ واحدٍ، ولو كان من عند غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لوُجِدَ فيه اختلافٌ كبيرٌ، ولو كان من وضع البشر لاعتراه الترقيعُ والتجزئة.

وأنَّه خطابٌ شاملٌ للمسلم في كلِّ نواحي حياته، لا انفصامَ فيه بين قِيَمِ الحياة الخاصة والعامة، ولا انفصالَ بين أوضاع التعبُّد وأوضاعِ الحكم، وإنما تحيط تعاليمُه بالإنسان وتنسجم في نهجٍ واحدٍ ليُسلِمَ وجهَه وعملَه كلَّه لله عَزَّوَجَلَّ وحده بلا شريك، وتكون صلاته ونسكه ومحياه ومماته لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ربِّ العالمين.

٤- الائتمام:

يأتمُّ جماعة المصلين بإمامهم فيصطفُّون خلفَه يصلون بصلاته، ويتبعونه فيها، ويذكِّرونه إذا سها، فأعمال الصلاة لا تسقط عن المؤتمِّ إلَّا ما يكون من إنصاتٍ لما يسمع من قراءة الإمام، لكن عليه أن يقتديَ بإمامه فلا يساويه ولا يسابقه في موقفٍ، ولا ينصرف قلبه من الصلاة، كما وصَّى بذلك النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا أيُّها الناس إنِّي إمامُكم فلا تسبقوني بالركوع ولا بالسجود ولا بالقيام ولا بالانصراف**»[1].

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب النهي عن سبق الإمام =

فينبغي أن يتريَّث المصلِّي بإمامه حتى يتمَّ الركوعَ أو السجودَ أو الرفعَ، ثم يأتي بعده بنحو ذلك إيفاءً لمقتضى الاتباع، وهكذا كانت سنَّةُ اتباع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَمْ يَحْنِ أَحَدٌ مِنَّا ظَهْرَهُ حَتَّى يَضَعَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَبْهَتَهُ عَلَى الأَرْضِ»[1].

وحيثما أدرك المصلِّي الإمامَ في أحوال الصلاة كان عليه أن يصنعَ مثل ما يصنع، ويمضيَ في سائر الصلاة معه، فإذا فرغ الإمامُ وسلَّمَ؛ أكملَ ما فاته.

ويتجاوب المأموم مع إمامِه، فإذا قام الإمام خطيباً لزمه أن يستقبلَه وينصتَ لما يقول، فإذا قام مع القائمين للصلاة انصاع لإشارة الإمام في تسوية الصفوف، وإذا كان في قراءة الإمام دعاءٌ قال: «آمين»، وإذا قال الإمام: «سمع الله لمن حمده»، حَمِدَ هو اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حمداً كثيراً.

وإذا سها الإمامُ فأخطأ في صلاته ذكَّره المأموم بالتسبيح، أو أبان له بكلامٍ موجَزٍ، فقد روى أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلَّى رباعيَّةً فسلَّمَ من ركعتين، ثم رأى جذعاً في قِبلَةِ المسجدِ

= بركوع أو سجود ونحوهما، حديث رقم ٤٢٦، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب السجود على سبعة أعظم، حديث ٨١١، من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فاستند إليه مغضبـًا، وفي القوم أبو بكرٍ وعمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، فهابا أن يتكلَّمَا وخرج سرعان الناسِ[1] فقالوا: «قُصِرَت الصلاةُ»، فقام ذو اليدين فقال: يا رسول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أقصرت الصلاةُ أم نسيت؟ فنظر النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يمينـًا وشمالاً فقال: «**ما يقول ذو اليدين؟**» قالوا: صَدَقَ، لم تصلِّ إلَّا ركعتين، «**فصلَّى ركعتين وسلَّم، وسجد للسهو**»[2].

وجملةُ شأنِ المؤتمِّ مع الإمام أن يراقبَه فيتابعه على أعمالها الصحيحة ويجاوبَه أو ينصتَ له في أقوالها المهجورة، ويذكِّرَه إذا سها في الصلاة.

وفي هذه الآداب التي يتعبَّد بها المسلم في كلِّ جماعة يشهدها تربيةٌ تنفعه في سائر علاقاته الاجتماعية، لا سيما في موقفه من أميره، وفي هذا تتوافق أيضـًا أحكامُ الائتمامِ في الصلاة بأحكام سلوكِ الرعية مع الأمير؛ فليس للمسلمين أن يتكلَّموا على

(١) في القاموس: سَرَعَان الناس: أوائلُهم المستبقون الأمر، وبضمِّ السين وإسكان الراء جمع سريعٍ ككثيب وكثبان. انظر الأزهري، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور ت (٣٧٠هـ)، تهذيب اللغة، المحقق: محمد عوض مرعب الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط١(٢٠٠١م)، ج٢، ص ٥٤.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب هل يأخذ الإمام إذا شك بقول الناس؟، حديث ٧١٤، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

قائدهم ليقومَ دونهم بأعمال الإصلاح ويضطلع بالنهضة، وإنما تصلح الأمةُ وتنهض إذا كان قادتُها قدوةً حسنةً، وتجاوبت معهم الرعيةُ بأسرها فنَحَت نحوَهم بجهودها جميعًا، وأسهمت بطاقاتِها الفعالةِ كافَّة في تحقيق الغايات العامَّة.

وعلى الرعية طاعةُ الإمام في المعروف فلا يبادرونه بعملٍ غيرِ مأذون، وإذا كانوا معه في أمرٍ جامعٍ لم ينصرفوا أو يشذُّوا من دونه ولم يخالفوه فيما أمر: «**على المرء المسلم السمع والطاعة**»[1].

بيد أنَّها طاعة محدودة بحدود الشرع، مصحوبة بالوعي والمراقبة، فعلى المسلِم أن ينصحَ لإمامه إذا رأى منه شيئًا يكرهه؛ ليردَّه إلى الحقِّ بالإشارة والتذكير.

وفي الصلاة تربيةٌ على الجرأة في إسداء النصح للإمام ومراقبة حدودِ حقِّه في الإمامة، فلما تأخر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرّةً وقدَّموا عبدَ الرحمن بنَ عوفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للصلاة أدركهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ففزعوا بعد سلامهم بمرأى الرسولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكمل ما فاته، فلما قضى أقبلَ عليهم ثم قال: «**أحسنتم**»[2].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، وتحريمها في المعصية، حديث رقم ١٨٣٩، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب تقديم الجماعة من يصلي =

ولما سها الرسولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهابه كبارُ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أن يكلموه انبرى ذو اليدين فذكَّره فتذكَّرَ كما تقدَّم.

وكذلك: «**الدين النصيحة... لله ولرسولِهِ ولأئمَّةِ المسلمين وعامَّتِهم**»(١)، و«**أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر -أو أمير جائر-**»(٢).

وفي الصلاة كذلك توجيهُ لإحاطة إمام المسلمين بحاشيةٍ من الرجال الصالحين هم مجلس شوراه، يصوِّبُونه بالنصح ويخلفونه في الشؤون العامة، كما يلي إمامَ الصلاة الراشدون من المصلين، يسبحون له إذا سها ويفتحون عليه إذا التَبَسَ عليه قرآنُه، وتكون فيهم خلافته إذا خلا مقامُ الإمامة: «**لِيَلِنِي منكم أولوا الأحلام والنُّهَى**»(٣).

= بهم إذا تأخر الإمام ولم يخافوا مفسدة بالتقديم، حديث رقم ٢٧٤، من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، حديث رقم ٥٥، من حديث تميم الداري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه أبو داوود في سننه، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، حديث رقم ٤٣٤٤، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، صحيح لغيره، انظر سنن أب داوود، تحقيق الأرناؤوط، دار الرسالة العالمية،ط١ (١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م)، ج٦، ص٤٠٠.

(٣) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف، حديث =

وخلاصة القول: إن صلاة الجماعة - إلى جانب أنَّها عبادة مباشرة - تذكيرٌ للمسلم بتعاليم الإسلام في العلاقات العامّة، وممارسةٌ فعليَّةٌ تعمِّق في نفسه معانيها، وتروِّضُه على الالتزام بها من تلقاء نفسه، وبذلك تتكامل أعمالُه على نهجٍ واحدٍ حتى تكونَ حياته كلُّها عامرةً بالخير والرشاد لا يَعتَوِرُها قصورٌ ولا اختلاف.

= رقم ٤٣٢، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

خُسْرانُ المسلمين بإضاعَةِ الصَّلاة

«الصلاةُ عمادُ الدِّين مَن أقامها فقد أقام الدِّين ومن تركها فقد هدم الدِّين» [أثر].

لقد ضيَّع المسلمون -إلَّا قليلاً- فريضةَ الصلاة على عظيم قدرها وفضلها في الدين، فمنهم من يتركها ويعطِّل فرَضها جملةً واحدة، ومنهم من يقطعها حينًا من الدهر ثم يعود إليها عند حجِّه أو صومه، أو حين تعصره أزمةُ مرضٍ أو حاجةٍ، فيرقُّ قلبُه للدِّين، ومنهم من ينافق بها فيُهمِلُها في خلوته ويظاهِرُ بها في الملأ.

وقد شاعت هذه الظواهر في كلِّ قطاعات المجتمعات المسلمة، سواء في ذلك الأوساط الجاهلة التي تمثل انحطاط المسلمين وتخلُّفَهم، والأوساط المتعلِّمة التي ساد فيها الانحرافِ بأَثَرِ الحضارة المادية.

ومن المسلمين طائفةٌ ما تزال تبني المساجدَ وترتادها وتؤدِّي الصلاةَ، ولكنَّهم لا يقيمونها ولا يتمُّونها، ولا يحسنون ركوعَها ولا خشوعها، بل يمرُّون عليها بمنطقٍ رتيبٍ يجري على اللسان، والقلبُ لاهٍ، ويتحركون بخفضٍ ورفعٍ لا ينطوي على إحساس، والصلاة عند كثيرٍ منهم مظهرٌ وعادةٌ يلتزمونها اعتباراً للمجتمع، وطقوسٌ وأشكالٌ فرعٌ عن تقاليد اللبس والسلوك.

وتضاءَلَ العلمُ بالصلاة فمِن جاهلٍ مُطبِقٍ لا يفقه مبادئَ الطهارة ولا يعلم من الصلاة إلا صورةَ حركاتها وشيئًا من قراءة، ومن متعلِّمٍ يسرد فرائضها ويعدِّدُ سُنَنَها ولا يدرك مضمونَها الكلي، ولا يفهم معنى أذكارها ولا مدلول أركانها.

وأدَّى ذلك إلى الجهل بقَدرها وأثرها، فالذي تركَها زاهدٌ فيها لذلك، والذي يجريها قد يؤول إلى تركها، والذي مداومٌ عليها لا يرعاها حقَّ الرعاية.

وقليلٌ من المسلمين مَن يخشع فيها، ويحفظ حقَّها في النيات والأقوال والأفعال، ويفقه معانيها، ويدرك آثارها في نفسه وحياته، فيزداد بالتجربة إيمانًا وإحسانًا.

ولما كانت الصلاةُ - على ما تقدَّم بيانُه - ذاتَ أثرٍ عريضٍ في حياة الفرد والمجتمع، وتكاد تتَّصل بكلِّ معاني الدين وتعاليمه؛ فإنَّ ضياعَها كان سببًا في أغلب مظاهر الانحطاط عند المسلمين.

وصحيحٌ أنَّ هوانَ المسلمين في موازين الدنيا والآخرة مردُّهُ إلى أسباب شاملة لا ترجع إلى عاملٍ واحد، وأنَّهم نَسُوا كثيراً مما ذُكِّرُوا به، وأن وجوهَ تقصيرهم تتداعى فلا يفرطون في ناحيةٍ إلا انتهوا إلى التقصير في نحوٍ آخر؛ لتكامل أحكام الدين

وترابطها؛ لكن مهما يكن ذلك فإنَّ لإضاعة الصلاة مكانـًا كبيراً بين أدواء المجتمع المسلم؛ لأنَّ الصلاةَ أمُّ العبادات، فيها من كلِّ عبادةٍ شيءٌ؛ ولأنَّها قاعدة التكاليف، تحفظ الوجهة والاستقامةَ لكلِّ عملٍ صالح، وتبعث الدوافعَ للانطلاق الرشيد؛ ولأنها نبعُ الإيمان الأول بها يتروَّى المؤمن من معاني الإيمان.

ولذلك جعلها القرآنُ -كما قدَّمنا- رمزاً لكلِّ طاعات الإسلام العمليَّة التي تنفذ عقيدة الإيمان في واقع الحياة: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾ [القيامة: ٣١ - ٣٢]، وأَمَرَ بها في سياقِ أحكام العلاقات الزوجيَّة، والعلاقات المالية[1] وأَوْرَدَها في كلِّ بيانٍ مفصَّلٍ ذكرة لصفة المؤمنين وعملهم الصالح.

ولذلك أيضـًا جعلها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -كما أسلفنا- أوَّلَ أعمال الإسلام وأجلَّها، فهي الأساس لطاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عمومـًا وقاعدة الخضوع لأحكامه.

وهذا الفضل الذي تتميَّز به الصلاة يجعل لها بَعد العقيدةِ وضعـًا مركزيـًا في الدِّين، لأنَّها تؤثر في حياة المسلم كلَّ الآثار الواسعة التي تقدَّم بيانها، ولأنَّ عواقب تركها أيضـًا تنتظم كلّ نواحي الحياة، فإذا ضيّعها المسلم كان لما سواها أضيع، وإذا

(١) اقرأ إن شئتَ آيتي ٢٢٨ و٢٧٧ من سورة البقرة.

فسدت سَرَى الفساد في سائر عمله، وإذا أساء فيها انبسطت آثارُ السوء في أمره كله.

وإذا ثبت بوجهٍ عامٍّ أنَّ أسباب انحطاط المسلمين شاملة تتكامل وتتفاعل بصورة تجعل من كلِّ معصية يقترفونها عاملاً في خسرانهم، ومدعاةً لمزيد من وجوه التولي والتردي؛ فإنَّ إضاعة الصلاة بوجهٍ خاصٍّ حلقة تتسلسل من سائر المعاصي وإليها، وتتصل عموماً بكلِّ عناصر الداء الذي أصاب المسلمين، وتكاد أعراضُ بعض عللهم ترتبط في شدتها ارتباطاً مباشراً بحظهم من الصلاة.

فالمراقب لشأن المسلمين بين الأمم يجد أنهم قد فقدوا كثيراً من الصفة التي تميزوا بها، والذاتيّة التي برزوا بها من دون سائر الناس؛ فأنت ترى المسلمَ وقد حال مظهرُه وأصبحَ يحكى مظهرَ الكافر الذي يليه، وتنزل بالبلد المنتسبِ أهلُها للإسلام فلا تكاد تشاهد ما يميزها عن البلاد الأخرى.

وقد رأينا في الصلاة أنَّها السِّمَةُ المائِزَةُ لأهل الإسلام، وأنهم يتماثلون بها ويتعارفون ويتميزون بها، ويستقلُّون ويبرزون أنموذجاً أصيلاً يقوم بين العالمين داعياً بصورته إلى الإسلام. وكان ينبغي وقد تلاحم العالمُ وانتشرت أسبابُ الاتصال

الوثيق بين الأمم أن يكون ظهورُنا بالصلاة مؤكَّدَ الأثرِ في تذكيرنا بذاتيتنا المشتركة، وفي تنبيه الناس إلى اختلافنا عنهم بالصلاة، وفي حملهم على تعرُّفِه والوقوفِ على فضائله.

لكن بنسيان الصلاة ذابَ المسلم في وسطه، فالذي يعيش في دار الكفر الْتَحَقَ في مظهره كلِّه بأهلها، والذي بقي في بلاده طَغَتْ عليه مظاهر الحياة الكافرة التي استبد أصحابها ببلاد المسلمين، وانمحت بذلك شخصيةُ المسلمين المتميزة، وأصبح كلُّ شعبٍ منهم تبعًا للذي تغلَّب عليه من الملة الكافرة إلا بالعصبيَّة القومية التي أُلبِسْنَاها.

وهكذا تفرَّق المسلمون بتفرق المشارب التي تحكمت فيهم والشعوب التي قَلَّدوها، واضمحلَّت بينهم المظاهر المشتركة والمبادئ الجامعة، ثم لم يعد في أوضاعهم ما يضرب للناس المثل أو القدوة أو يدعو للإسلام.

ذلك ولو ثاب المسلمون لصلاتهم لكانت إحدى العوامل الهامَّة في جمع شتاتهم من جديد بمظهرها الواحد، وتأكيدها للالتزام بسائر المظاهر الإسلامية وتعميقها لمعنى التميز والاستقلال، فيقبل بعضهم على بعض إخوانا مؤتلفين، ويشهرون على العالم ذاتيةً خاصةً، ويظهرون له خيرَ أمَّةٍ أخرجت للناس.

غيرَ أنَّ المسلمين - أو جُلَّهم - على ما بهم من مسخ الشخصيةِ؛ ضلُّوا عن قبلتهم فأصبحوا بلا سمةٍ ولا اتجاه، وقد كانوا في عهد حفظ الصلاة يتعلَّمون منها تحري القبلة المستقلة التي ولاهم إياها الله، فيلتزمونها بلا انصراف ولا انحراف، ويهتدون بذلك إلى الصراط المستقيم والشريعة التي جعلهم عليها الله ليستمسكوا بها، ولا يتبعوا أهواء الذين لا يعلمون.

ثم ضيعوا الصلاة فضاعت عنهم قبلة الرشاد، فمنهم مَن لا يكاد يفقه شيئًا، يضل كالأنعام ويخبط خبطَ العشواء، ويتحول في مذاهبه فتذهب جهودُه هدراً، ومنهم من تستخفُّه المذاهب الوضعية فينزع نحو الغرب أو الشرق ويتذبذبُ في ذلك، فهو كلَّ يومٍ في شأنٍ، يهتف مع هذا ثم مع ذاك، ويفر من ظلام مذهبٍ إلى ظلام الآخر.

وهكذا اضطربت مناهجُ المسلمين بعد ضلالهم عن قبلةِ الإسلام وصراطه، وهاموا على وجوههم تائهين تتنازَعُهم الثقافات، وتتقلب بهم الأهواء المحليَّة والمستوردة، فانبتَّ سعيهم نحو النهضة؛ لأنهم لم يثبتوا على هدف أو طريق، وتفرقوا على السُّبُل والشِّعاب، وتشتَّت كلمتُهم؛ لأنهم لا يعتصمون بحبلٍ واحدٍ فتشاكوا وفَشِلُوا وذهبت ريحُهم.

وإذ تجاذبت المسلمين المنازعُ وتفرقت بهم المناحي، تمزَّق كيانهم وتزعزعت قيمهم، ولم يعد للوجود في أنفسهم معنى واحداً، بل قسموا حياتهم أشتاتاً وجعلوا دينهم عضين.

ولو أنهم حفظوا الصلاةَ لهدتهم إلى أنَّ العبادة لا تنفصل من الحياة، بل تتخلل الأعمال فتنفح فيها كلَّها طبيعةً روحيَّة متَّسَقَةً، ولتثبِّتهم على وجهةٍ واحدةٍ يستقيمون عليها بكلِّ مساعيهم، ولتعمَّقَتْ فيهم عقيدة التوحيد، فصار نهجُهم في كلِّ جوانب الحياة قاصداً وجهَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا تنشقُّ الحياة الاجتماعية العامة عن الحياة الخاصة، ولا الدِّين عن السياسة، ولا تنحصر عبادة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في زاويةٍ واحدةٍ.

ولكن المسلمين اليوم قد عزلوا الدين عن الحياة، وتأثروا بأفكار أهل الغرب وتجاربهم التي انبثقت عن تاريخٍ خاصٍّ غلبت فيه على دينهم الطبيعةُ الوصفية والأهواء البشرية، فأصبح مذهبًا جزئيّاً غيرَ شاملٍ لمقاصد الحياة كلِّها، وظاهرةً عصريَّة غيرَ قابلة للبقاء على تقلب الظروف، وتأثَّر بجنوح الإنسان للاستسلام لحكم التقاليد، وللنزول على هوى السلطان حتى ينسى حكمَ الله عَزَّوَجَلَّ في العلاقات العامة، ثم تضمحل معاني الدِّين الفعالة في نفسه.

ولـو أنَّ المسلمين استعانوا بالصلاة الواعية الخاشعة لذكَّرتهم ما يستعيدون به تصورهم الكامل للدِّين، وتطبيقهم الشامل لتعاليمه؛ فإنَّ في تواليها ودوامها - كما أسلفنا - إشاعة لمعنى العبادة في الحياة كلها، وإنَّ في قبلتها التوجه الكلِّي إلى الله جَلَّوَعَلَا والاستقامة التامَّة بلا ميلٍ ولا إدبار، وإنَّ في قنوتها إسلام مطلَقٌ وانصرافٌ عن كلِّ همٍّ غير متصل بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ- وكل تلك معانٍ تعصم المسلمين من الشِّرك العظيم الذي وقعوا فيه بصرف حياتهم العامَّة عن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وبنَقضِ كثيرٍ من عُرَى الدين، والأخذِ ببعضه دون بعض.

وتعطيلُ الشريعة في حياة المسلمين العامَّة مظهرٌ كذلك لجنوحهم لمعصية الله -جلّ شأنه- والتولي عن طاعته وقد اسْتَشْرَتْ مظاهرُ أخرى لذلك العصيان في واقع المسلمين، وفَشَتْ فيهم صفاةُ الكفر وأعمالُ الجاهلية، وهم يزعمون أنهم ما زالـوا عباداً لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أتباعـاً لرسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وجرَّهم إلى المعاصي أنَّ كثيراً منهم لا يركعون لله عَزَّوَجَلَّ ولا يسجدون، فما عهدوا تطويعَ جوارحهم لطاعة الله جَلَّوَعَلَا، وأنَّ منهم مَن يصلون فلا يتمُّون أركان الصلاة، ولا يستشعرون معنى الاقتداء الدقيق بعمل النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وتتحرك ألسنتُهم وجوارحهم بأذكار الصلاة وأفعالها، فلا يأتون ذلك عن طويَّةٍ

منفعلةٍ بالخضوع والانكسار لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولا يحسون حالةً من الذلِّ والطاعة لدى الصلاة حتى يبقى منها أثرٌ يعينهم على الطاعة في كلِّ مجال، وقد أصبح الدين عند كثيرين دعوى لسان يتمرَّد عليها صاحبها بعمله، فهو لا يجهل ربَّه ولكنه يفسق عن أمره، ويعرف مكارم الأخلاق ويقترف خبيثها؛ حتى أحاطت الذنوبُ بعامة المسلمين، وزُيِّن لهم سوءُ عملهم، فما تَعِظُهُم بعد نفسٌ لوَّامة ولا تنفعهم موعظةُ المنذرين.

ذلك أنَّهم لا يَصْدُقُون الذلَّ لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في الصلاة، فلا تورثهم صلاتُهم خوفًا من الله -جلّ شأنه-، ولا يُخلِصون فيها الاستغفارَ فلا تعقبهم حبَّ الإنابة، وتعود التوبة بعد التوبة ليسدُّوا على الشيطان الثغرات قبل أن يستحوذ عليهم، وليكملوا نقصَ دينهم قبل أن تقسو قلوبُهم ويحال بينهم وبين الهُدَى فلا يجدون سبيلاً إلَّا القهقرى خائبين.

وكلُّ هذه الأدواء وجوهٌ من ضعف الإيمان، فتركُ الصلاة يقطع المسلمين عن أصول العقيدة، فيهجرون القرآنَ وينسون الرسولَ ويغفلون عن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ويتباعد ما بينهم وبينه فلا قربى بسجودٍ ولا زلفى بدعاء، ولا ذكرٍ للدار الآخرة.

وإذا انبتَّتْ هكذا الصلة بأصولِ الإيمان نَفَذَتْ طاقة المسلمين، وهان أمرهم، وكيف يقوى على العمل الصالحِ

مَن خَمَدَت في نفسه دواعي الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ ودوافعُ الجهاد في سبيله حبـًا لله وشكراً لنعمائه ورجاءً لنعيمه الموعود، وأنى لمتضائلِ العقيدةِ أن يصبر على البلاء وينهضَ للمهمَّات ويتقدَّم لَلبذلِ عفواً وعن طيبِ خاطرٍ مرضاةً لله جَلَّوَعَلَا وابتغاءَ أجره المضاعف القيم.

فلا عجبَ مع زهادة حظِّ المسلمين من الصلاة أن ضَعُفت هيبةُ المسلمين وشدة بأسهم، وأُورِثُوا حبَّ الحياة وكراهية الموت، فتداعت عليهم الأممُ بالعدوان، وطمع فيهم العزيزُ والذليل، وهم لا يدفعون عن حرمةٍ ولا يبلون إلّا أقل البلاء.

وقد أقعدهم العجزُ والكسلُ عن الإنتاج والتنمية الاقتصادية، وصرفتهم شهواتهم عن الجدِّ والعمل، ومنعهم شُحُّهم عن التضحية والعطاءِ لدعم البناء المادي لحياتهم وتحقيقِ العدالة الاجتماعية فيها، وقد كان لهم في الصلاة لو يتذكرون تعزيزٌ لقوتهم الواهية، وتمكينٌ للإيمان الذي هو دافعُ كلِّ جهدٍ مبذول، ومنطلقُ كلِّ نهضة منشودة.

ومن مظاهر إضاعة الصلاة: التفريطُ في صلاة الجماعة، وقد روي عن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**مَن سرَّه أن يلقى الله غداً فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادى بهنَّ، فإنَّ الله شرع لنبيكم سُنَنَ**

الهدى، ولو أنكم صلَّيتم في بيوتكم كما يصلِّي هذا المتخلف في بيته لتركتم سنَّةَ نبيكم، ولو تركتم سنَّة نبيكم لضللتم، وقد رأيتُنا وما يتخلَّف عنها إلا منافقٌ معلومُ النفاق، ولقد كان الرجل يؤتَى به يُهادَي بين الرجلين حتى يُقَامَ في الصف» (١).

فقد كانت الجماعة في صدر الإسلام سنَّةً لازمةً، واليوم هجرها المسلمون إلا الجمعة، وذلك عاملٌ غير ضئيل من انفضاض جماعتهم ووهنِ أسباب التضامنِ والتراحم بينهم.

وقد تقلَّص الشعور بالمسؤولية الاجتماعية وقلَّ مَن يأبه لواجبات الكفاية ويهتمُّ لرعاية شؤون المسلمين العامة، من الائتمار بالمعروف، والتناهي عن المنكر، والتواصي بالحقِّ، بل تفرق المسلمون فلم يعودوا صفّاً متراصّاً متحاذياً يتنادون لكلِّ أمرٍ جامع، فيلبون الداعي للخير ويتجاوبون منعطفين إلى صلاحهم المشترك، وإنما هم شِيَعٌ وعزين، كلُّ حزبٍ بما لديهم فرحون، تشتَّتهم الأهواء والعصبيَّات، وبدلوا بالتساوي والتآخي فوارقَ الطبقات من بغيِ الكبراء وحقدِ الضعفاء.

وكان للمسلمين في الجماعة لو حفظوها وأحسنوها ما يصونُ لهم وحدتَهم وتضامنَهم، وكان لهم ما يهديهم إلى

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب صلاة الجماعة من سنن الهدى، حديث رقم ٦٥٤، من حديث عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

اتخاذ القيادة الرشيدة التي ترعى شؤون الجماعة، وإلى تنظيم العلاقات السليمة بين القائد والرعية، ولكنهم يفوتون الجماعة أو يشهدونها بلا وعيٍ ولا تدبُّرٍ، فينصرفون عنها ولا تقوم لهم بعدها قيادة، ولا إمامة دينية يصفُّون وراءها للحكم أو للجهاد، بل يتفرَّقون على القيادات التقليدية الضالة، وقد عَلِموا أنَّه لا طاعة لقائدٍ إلا في حدود الشرع، وأنَّ الجهر بالنصيحة هو أدبُ المسلمين يلازمهم حتَّى في الصلاة القانتة، وأنَّ القيادة في الإسلام شرطها الكفاءة وقاعدتها الرضا، لا اعتبارَ فيها لولاءِ العصبيَّة أو وراثة التقاليد، وأنها تقوم على اجتهادِ القائد في النصح والإحسان لأتباعه، وأخذهم بالرفق والتواضع، وعلى قيام الرعيةِ بالطاعة الدقيقة والنصحِ الجميل للحكام؛ وكلها أحكام يفتقدها المسلمون في أوضاعهم العامَّة، وفي إقام صلاة الجماعة وإحسانها ما يعين على استدراكها.

وختام القول

إنَّ الصلاة هي أُولـى الفرائض العملية، وأجـلُّ أعمال الإسلام، وشعبةُ الإيمان الكبرى، فمَن ضيَّعها فقد اقترف كُفراً، واستغضب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ربَّه وخان عهد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهو بتركها آيلٌ إلى التفريط في كثيرٍ من تعاليم الدين، مِن واجبٍ تأمر به الصلاة، ومنكرٍ تنهى عنه، وأعمال صالحة تستتبعها.

وهو مستزيدٌ بذلك من سخط الله عَزَّوَجَلَّ، وإذا غضب الله جَلَّ وَعَلَا على قومٍ فإنَّه منزلٌ بهم كلَّ ضروب الخسران: يُغرِي بينهم العداوة والبغضاء، ويضرب عليهم الذلَّةَ والمسكنة، ويذيقهم عيشةً ضنكـًا، ويصبُّ عليهم سوط عذاب؛ ذلك خزيٌ في الحياة الدنيا، ويوم القيامة يردُّون إلى عذاب عظيم.

تلك آثارُ الصلاة الطيبة يجدها المسلم في حياته الأولى قبل أن يلقى ربَّه فيجزيه الجزاء الأوفى.

وذلـك هو الخسران من إضاعة الصلاة يلقاه الشقيُّ في عاجلته قبل أن يقفَ موقف الحساب.

فاللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أسألُ أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يقبل صلواتنا، ويجيب دعواتنا، ويغفر زلَّاتنا، ويؤتينا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، ويقينا عذابَ النار.

فهرس الموضوعات

مقدمة الناشر ٥
المقَدِّمة..... ٧
الصَّلاة أولَى الفرائِض العَمليّة في الدِّين..... ١٢
١- الشعيرة الباقية عبر الرسالات ١٢
٢- فريضة الله -سُبْحَانَهُوَتَعَالَى- الأولى في الإسلام ١٥
الصَّلاة السِّمة المائِزة لأهل الاسلام..... ٢٥
٢- شرط الاسلام ومناط أحكامه ٢٩
٣- آية المسلم وشارة استقلاله..... ٤٠
الصَّلاة اسْتِغراقٌ دَائِم في عِبَادةِ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى ٤٧
١- توالي الصلوات إشاعةٌ لروح الدين..... ٤٧
٢- دوام الصلاة ودوام الذكر والعمل. ٥٨
الصَّلاة تَوجُّهٌ إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى وإلى القبلةِ الواحِدة ٦٥
١- التوجه إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى ٦٥
٢- استقامةُ الاتجاهِ على صراط الإسلام ٦٨
٣- توحيد أهل القبلة ٧٥
الصَّلاة تمامُ التجرُّدِ والإخلاصِ لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى..... ٨٠
١- التجرد لمناجاة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى ٨٠
٢- الإخلاص لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى بالعبادة والولاء..... ٩٠

الصَّلاة خشوع وَطاعة صَادقة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والرسُول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٩٦
١- خشوع كامل بالقول والفعل والشعور ٩٦
٢- تكامل في الدين وطاعة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ١٠٣
الصَّلاة طهَارة وإنَابَة وتَقوَى..... ١١٢
١- طهارة وإنابة ١١٢
٢- تقوى ومزدجر عند المعاصي ١١٨
الصَّلاة تزكيَة للإيمَان وقوَة لدَوافِع الجهَاد ١٢٦
١- قربى وتذكرة بأصول الإيمان ١٢٦
٢- عونٌ على الصبر والمجاهدة ١٣٣
صَلاةُ الجَماعة تربيةٌ اجتماعيَّةٌ كامِلة ١٤٣
١- الاستجابة للدعوة الجامعة..... ١٥٤
٢- المساواة بين المسلمين ١٦٢
٣- الإمامة..... ١٦٤
٤- الائتمام..... ١٧٠
خُسْرانُ المسلمين بإضاعَةِ الصَّلاة ١٧٦

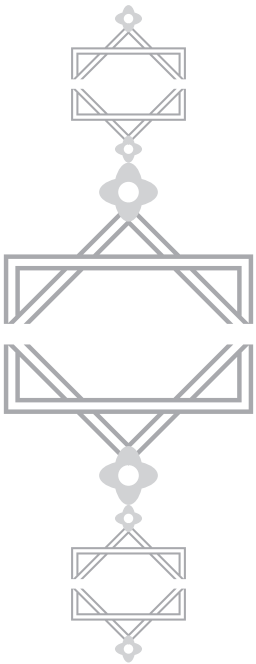

الشيخ الدكتور

حسن الترابي

السيرة الذاتية
للشيخ الدكتور حسن الترابي[1]

(١ فبراير ١٩٣٢ / ٥ مارس ٢٠١٦)

المولد والنشأة

ولد الشيخ الدكتور حسن عبد الله دفع الله الترابي في ٢٥ رمضان ١٣٥٠هـ الموافق الأول من فبراير في العام ١٩٣٢م بمدينة كسلا شرق السودان حيث كان والده قاضيا شرعيا بالمدينة، وقد كان لوظيفة والده الأثر في تجوّله أنحاء عديدة من السودان حيث عاش في طفولته وشبابه الأول في عدة مدن، كما أن والده اهتم بتعليم أبناءه العلومَ الشرعية من قرآنٍ وحديثٍ وعلوم اللغة العربية من أمهات الكتب. وعن ذلك يقول الشيخ الترابي أنه لما بلغ المدرسة الوسطى كان له راتب شهري من مصادر العلوم الشرعية يتعين عليه الرجوع إليها حتى إذا عاد إلى منزل الأسرة خلال عطلات نهاية الأسبوع كان عليه مراجعة ما تحصله من معارف مع والده.

(١) حسن الترابي - توقيعات على كتاب الرحيل، الطبعة الأولى ٢٠١٦، (مجموعة دار الشرق)

ولكن أسرته كحال غالب أهل السودان تنحدر أصولها من مناطق مختلفة حتى استقرت وسط السودان جنوبي الخرطوم العاصمة الحالية.

التعليم

تلقى الشيخ الدكتور تعليمه النظامي في مدن مختلفة حيث درس المرحلة الوسطى بمدينة ود مدني والمدرسة الثانوية بمدرسة حنتوب الشهيرة شرقى ود مدني ثم التحق بدراسة القانون بجامعة الخرطوم بين الأعوام ١٩٥١-١٩٥٥م ثم نال شهادة الماجستير من جامعة لندن في العام خلال عامي ١٩٥٩-١٩٥٧م. والدكتوراة من جامعة السوربون بفرنسا في العام ١٩٦٤م.

تمكنه المبكر من دراسة اللغة العربية واطلاعه الواسع على مصادرها الأساسية مكّنه من إجادة اللغتين الإنجليزية والفرنسية بطلاقة شديدة ثم اللغة الألمانية في وقت لاحق.

الحياة العملية

فور عودته من الدراسة العليا في أوائل العام ١٩٦٤م انخرط استاذا بكلية القانون بجامعة الخرطوم وتولى عمادتها لبعض الوقت، ولكنه ما لبث أن استقال وتفرّغ لقيادة الحركة الإسلامية.

بعد المصالحة مع نظام مايو في العام ١٩٧٧ تولى مناصب تنفيذية من بينها النائب العام ومستشار الرئيس للشئون الخارجية.

ثم تولى منصب وزير العدل والنائب العام، ثم وزير الخارجية ونائب رئيس الوزراء في الحكومة الائتلافية برئاسة السيد الصادق المهدي والتي تشكّلت في العام ١٩٨٧م.

وفي العام ١٩٩٦م تولى رئاسة البرلمان حتى العام ١٩٩٩م.

الحياة السياسية

انضم الدكتور الترابي لتكوينات الحركة الإسلامية الحديثة في بدايات العقد الخامس في القرن العشرين. ثم ما لبث أن صعد إلى قيادتها عقب عودته من دراسة دكتوراة في فرنسا وكان له إسهام كبير في إشعال فتيل ثورة أكتوبر ١٩٦٤م من خلال أطروحاته التي أعلنها في ندوة نظمها اتحاد طلاب الجامعة بشأن سياسة الحكومة حينها تجاه الأزمة في جنوب السودان، كما ساهم في تنظيم المسيرات الأخيرة والمفاوضات بين قيادة السلطة العسكرية والكيانات السياسية حينها والتي أفضت إلى صيغة للتوافق على تنازل الحكومة العسكرية عن السلطة وقيام سلطة انتقالية للتهيئة لانتخابات حرة.

أُنتخب أميناً عاما لجبهة الميثاق التي تم إنشاؤها بعد سقوط الحكومة العسكرية في أكتوبر ١٩٦٤م، وبهذه الصفة مثل الجبهة وبصفته القانونية الأكاديمية شارك في المفاوضات التي عُرفت بمؤتمر المائدة المستديرة حول مستقبل علاقة جنوب السودان بالحكم المركزي وشكل الحكم الدستوري المناسب لحكم السودان.

أُنتخب نائبا بالبرلمان عن دوائر الخريجين ١٩٦٥م.

فور وقوع انقلاب مايو في ٢٥ مايو ١٩٦٩م تم اعتقاله لفترات تفاوتت وبلغت في مجملها سبع سنوات، وفي العام ١٩٧٧م دخل في النظام السياسي لنظام مايو عضواً في المكتب السياسي للاتحاد الاشتراكي. ثم تم تعيينه نائبا عاما ومستشارا للرئيس للشئون الخارجية حتى ١٠ مارس ١٩٨٥م حيث اعتُقل من جديد مع عدد من قيادات الحركة الإسلامية حيث ظلوا في المعتقلات حتى وقوع الانتفاضة الشعبية الثانية ضد حكم العسكر في ٦ أبريل ١٩٨٥م.

أُنتخب أمينا عاما للجبهة الإسلامية القومية التي تأسست في يونيو ١٩٨٥م وظل أمينها العام حتى وقوع انقلاب ٣٠ يونيو ١٩٨٩م.

أُعتقل صبيحة انقلاب ١٩٨٩م مع قادة الأحزاب والقوى السياسية حتى أُخرج من المعتقل أواخر العام ١٩٨٩م.

في العام ١٩٩١م أسس مع نخبة من الإسلاميين والمفكرين العرب المؤتمر الشعبي العربي والإسلامي وأُنتخب أمينا عاما له.

أُنتخب رئيسا للمجلس الوطني في ١٩٩٦م.

في العام ١٩٩٨م أُنتخب أمينا عاما لحزب المؤتمر الوطني الحاكم حتى وقوع المفاصلة في مايو ٢٠٠٠م حيث تأسس المؤتمر الشعبي في يونيو ٢٠٠٠م واستمر أمينا عاما له.

أُعتقل في فبراير ٢٠٠٠م في أعقاب توقيع مذكرة التفاهم بين المؤتمر الشعبي والحركة الشعبية لتحرير السودان، ثم تجددت فترات اعتقاله حتى العام ٢٠١٣م وبلغت في مجملها أكثر من ثمان سنوات.

مساهماته الفكرية

أصدر الدكتور الترابي عدد من الدراسات والأوراق والكتب أهمها:

* الصلاة عماد الدين ١٩٧١م.
* الإيمان وأثره في حياة الإنسان ١٩٧٣م.
* المرأة بين تعاليم الدين وتقاليد المجتمع ١٩٧٤م.
* تجديد أصول فقه الأحكام ١٩٧٨م. (الرياض، السعودية).

* الحركة الإسلامية والتحديث ١٩٧٩ م. (بالاشتراك مع راشد الغنوشي).
* قضايا الوحدة والحرية ١٩٨٠م.
* حوار الدين والفن ١٩٨١م.
* تجديد أصول الفقه ١٩٨١م.
* تجديد الفكر الإسلامي ١٩٨٢م.
* قضايا التجديد: نحو منهج أصولي ١٩٨٢م.
* الأشكال الناظمة لدولة إسلامية معاصرة ١٩٨٢م. (الدوحة، قطر).
* تجديد الدين ١٩٨٤م.
* الشورى والديمقراطية إشكالات المصطلح والمفهوم ١٩٨٤م.
* منهجية التشريع الإسلامي ١٩٨٧م.
* الحركة الإسلامية في السودان (المنهج، التطور، الكسب) ١٩٨٩م.
* المصطلحات السياسية في الإسلام ١٩٩٨م.
* الجهاد وهجمات الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م.

* الشعائر الدينية أثرها في الحياة العامة ٢٠٠٢م.
* عبرة المسير لاثنتي عشر السنين ٢٠٠٢م.
* السياسة والحكم: النظم السلطانية بين الأصول وسنن الواقع ٢٠٠٣م.
* التفسير التوحيدي ٢٠٠٦م.

كما شارك في العديد من المؤتمرات وقدم المئات من الأوراق في قضايا السياسة والحكم والفكر.

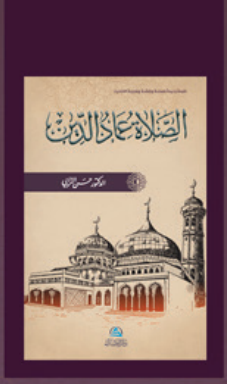

عن الكتاب

هذا كتابٌ في معاني الصلاة وآثارها في حياة المسلِم، من حيث إنَّها أمُّ العبادات وإنَّها تربيةٌ كاملةٌ للمسلِم تُورِثُه نَفْساً مُشربةً بمعاني الإيمان جميعاً وحياةً طيِّبةً عامرةً بالعبادة وصالح الأعمال.

وهو بيانٌ للحِكَم البالغة والمقاصد الجليلة التي جُعِلت من شعيرة الصلاة عماداً لكلِّ شُعَبِ الإيمان، وقاعدةً لكلِّ صنوف الطاعات، حتى كادت أن تكون جماعاً لأركان الدين، تمثِّل كلّاً منها بوجهٍ ما وتحتويها جملةً في صورةٍ مصغَّرة، وحتى استحقَّت أن تكون أوجبَ واجبات الإسلام العمليَّة.

فهذا الكتاب خطابٌ:

- إلى المصلِّين الساهين عن معنى ما يؤدُّونه إلَّا مراعاةً لمجتمعٍ رقيبٍ، أو وفاءً بتقاليد أسرةٍ صالحةٍ أو مناصِرةً لمظهرِ عصبيَّةٍ دينيَّة.
- وإلى الذين تركوا الصلاةَ وما زال في نفوسهم جذوةٌ من إيمانٍ وقبسٍ من دينٍ، لم يمرقوا من ملَّة الإسلام، ولكنَّهم جهلوا حكمةَ تلك العبادة فلم يبالوا بها وهي أوجب الواجبات.
- وإلى أبناء المسلمين الذين هجروا دينَ آبائهم، حجبهم عن نوره الجهلُ الموروث، وفتَنَهم الفكرُ اللادينيُّ الجامح الخارج على الدَّيدَنات المظلمة.
- وإلى الغرباء عن الإسلام الذين ينشدون علماً بحقائقه.

ISBN: 978-625-8336-16-0

9 786258 336160

asaletyayinlari.com.tr

asaletyayinlari

دار الأصالة